فرح زيزي

رواية

علاء سعد حميده

عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية

إهداء إلى

زيزي

ملهمة العمل

واخوتها نوارة الحياة وروح الأمل

وإلى رفيقة المسير

وإلى أمي

صاحبة الفضل

خيال طَموح

نازلة السلالام يا مشاالله عليها

ست العرايس والشموع حواليها

نازلة السلالم

نازلة العروسة من سلالم بيتها

العز توبها والهنا فرحتها

نازلة السلالم

يا دي العريس افرح وطمن بالك

ست العرايس كلها جايالك

نازلة السلالم

تهبط الدرج ترتدي قميصها (بلوزة) مخططا بعدة ألوان بالطول تتدرّج بين اللون الطوبي واللون الوردي الفاتح واللون السماوي، أسفل منها تنورة واسعة سوداء اللون، وتضع على رأسها وكتفيها طرحة طويلة بلون الورد الفاتح.

التُقطت لها صورة وهي تهبط على البسطة الأخيرة قبل الدرجات الأربع السفلية المؤدّية إلى البوابة الحديدية للمنزل، تسحب خلفها حقيبة سفر متوسطة

الحجم ذات عجل، لونها وردي فاتح يتناسب مع لون طرحتها، وأعلى منها حقيبة جلدية أصغر منها سوداء لامعة.

تُبرز اللقطة في خلفيتها مدخل منزل الجدة من الداخل، الجدران مكسوّة بنوع جيد من الرخام فاتح اللون تتخلله تقاطيع تصنع خطوطًا عرضية من رخام أسود اللون، تتزين الأرضية الرخامية بسجادة صغيرة على البسطة وأخرى على أرضية المدخل خلف البوابة الحديدية مباشرة، وعلى الجانبين في الأركان مزهريات بها نباتات بلاستيكية خضراء للزينة، أما على الإفريز الرخامي أمام المرآتين المصقولتين المنتصبتين داخل بروز يشبه محاريب المساجد مؤطّر بإطار من الرخام الأخضر الداكن (الزيتي) فتظهر مزهريتان تحملان ورود بلاستيكية حمراء اللون بدرجات متفاوتة.

لم تكن أي أغنية تراثية ترن في أُذن "زيزي" في تلك الأثناء، تشغلها الكلمة التي ستنشرها على حسابها الخاص على موقع الفيس بوك، أسفل لقطتها الأخيرة، قبل أن تغادر ذلك المنزل الأثير الذي أقامت فيه نحو اثني عشر عامًا، منذ عادت من مكة المكرمة التي ولدت وعاشت بها صدرًا من عمرها الأول، حيث كتبت:

"كلها ساعات وأغادر حياتي كفتاة مدلّلة في بيت أسرتها، إلى حياة جديدة كليًّا، مختلفة تمامًا عما عهدته..

في بيتي الذي أحب، آنست حبًّا وحنانًا ومودة، لم يحظَ بها مثلي أحد أبدًا..

أغادر ومعي مبادئ وقيم عرفتها في بيتي، إلى بيت جديد أرسي فيه مبادئي وقيمي، وإلى عائلة جديدة تحتضنني بكل الحب..

إلى عائلتي التي أنتمي، لا كلمات تعبّر عن امتناني وحبي وعرفاني لكل ما فعلتموه لأجلي، ولا شكر يوفّي حقكم ومحبتكم.

دمت طفلتكم المدللة في كل حين"

كأنما كُتب على "زينب" الترحال والهجرة، فما تكاد ترتبط بمكان عدة سنوات حتى تبرحه إلى أبعد نقطة ممكنة، فكما كان رحيل "زينب" من موطن ولادتها في مكة المكرمة عائدة إلى موطن أسرتها الأصلي دون انتظار في القريب المنظور لعودة إلى مراتع الصبا والصبابة، موطن العشق، وطن الذكريات والصديقات ومدارس الطفولة وملاعبها وملاهيها، وحرم مكة المكرمة الآمن، فإن مغادرتها لمنزل العائلة الآن لم يكن مجرد انتقال إلى منزل آخر يقيم فيه العروس[١] (الزوج)، في حي آخر من أحياء مدينتها الإقليمية في أدنى الشمال الغربي للوجه البحري، وإنما سيكون رحيلها هذه المرة إلى مدينة أسيوط في وسط صعيد مصر!

على أن رحيل "زينب" هذه المرة يشكّل لديها إحساسًا خليطًا بين الشجن والسعادة، الشغف بحياة جديدة تبني فيها تجربتها الخاصة لتعيد سيرة آبائها وأجدادها في الحب على طريقتها المبتكرة ووفق خيالها الممتد للمستقبل، حيث تصنع تجارب الماضي أُطرًا معنوية تغذّي المستقبل بالخيال الخصب ولا تحدّه بأفق، شغف مشوب بالتوجس من ظلال المسؤولية عن حياة ستكون شريكة أساسية في بنائها، وركنها الركين.

تدرك "زينب" كم هي محظوظة إذ قُدّر لها أن تخطّط وترسم خطوط حياتها بنفسها ووفق تصوراتها وأفكارها ومبادئها، ودون قدرة البيئة المحيطة بها على التدخل

[١] - العَرُوسُ : المرأةُ ما دامت في عُرْسها، وكذلك الرجل كما جاء في مغجم المعاني، ولذلك هي تطلق على الزوج والزوجة

للحيلولة بينها وبين أحلامها الصغيرة التي تتحوّل تباعًا إلى قرارات كبيرة في هذه الحياة.

وتعي أن أسرتها الصغيرة المبتلاة شكّلت درعًا داعمًا لتلك الاستقلالية التي صنعت منها ذات إرادة فولاذية لا تنثني، أسرة استطاعت أن تقف في وجه طوفان العائلة الأكبر لتصدّها عن التدخّل في مسارات الواقع والمستقبل.

وللصلابة أثمانها المدفوعة على مدار سنوات عمرها، وها هي تسدّد باقي حساب فاتورتها الآن وهي تتحرّك إلى حياتها الجديدة برفقة الباقي لها من أسرتها الصغيرة على قيد الحياة، دون أن يصحبها في رحلتها عمّ أو عمّة، هؤلاء الذين قرّروا مقاطعة أسرتها منذ طالبت بحقها في الوصية الواجبة لتركة الجد والجدة، إذ قبض الله تعالى والدها في حياة والديه. فتنكّر لهم الأعمام، والعَمّة من أجل أكل حقوقهم بالباطل، دون أن يطرف لهم جفن!

و"زينب" تدرك أن معركة العائلة معهم لم تكن من أجل المال في المقام الأول، وإن شكّل المال بطبيعة الحال عصب المعركة، وغنيمتها الباردة. وإنما كان الصراع أساسًا بين طريقتين مختلفتين في الحياة حتى التضاد في أحيان كثيرة، فوالدها الراحل رب هذه الأسرة كان قد ارتضى لنفسه منهجًا مستقلا في الحياة لا يحيد عنه، شاركته فيه الزوجة فكرًا وسلوكًا، فتحوّلت العزلة الشعورية والغُربة الحاضرة رغم الوجود البدني، إلى غربة مكانية كادت تتحوّل إلى هجرة تامة أو منفى اختياري، عزّزت العزلة وضاعفت الانفصال بين الأسرة الصغيرة والعائلة الكبيرة التي فقدت بالتدريج وبتوالي السنين، شعور الاحتواء الذي يشعر به عادة المجتمع الأكبر في مقابل الانتماء الذي يسيطر على الكيانات الأصغر. تتوه الحقيقة التاريخية حول

من منهما سبق الآخر وكان سببا في الانفصام الروحي، هل سبق زوال الانتماء تلاشي الاحتواء، أم أن ضياع الاحتواء كان سببا في فقد الانتماء؟

يظل السؤال الفلسفي حائرًا بلا إجابة دقيقة حاسمة، لكن "زينب" ترى أن عقدة صراع الأسرة والعائلة تكمن في هذا السؤال الحائر، وأن العلاقة مآلها الحتمي سيصير إلى الانفصام على كل الوجوه، على أن بقاء الشكليات الاجتماعية التي تُؤدّى كطقوس بلا روح ستظل قائمة حفاظًا على المظهر الاجتماعي العام، ثم جاء الحافز المالي ليعزّز فرص القطيعة بشكلها الكامل قافزًا فوق كل الاعتبارات الاجتماعية.

قبل نحو ثلاثين عامًا أنشأ "عادل" رفقة زوجته "هدى" أسرة معاندة اجتماعيًا، مستعدة لدفع أي ثمن لفرض استقلالية لا يجود الزمان بمثلها في عالمنا المعاصر، ورثت "زينب" عن أسرتها كل طاقة العناد والتحدي، وتطرّفت في طلب الاستقلالية حتى بدت غرائبية الفكر والسلوك في مجتمع يصر على تنميط أبنائه وتصنيفهم وفق معايير خليط بين موروث شديد التخلف، بعيد كل البعد عن ميزان المنطق السليم والوحي المتواتر، وحداثة شديدة الانفلات والتفلت من كل ثابت يفترضه العقل أو يفرضه الشرع أو يقتضيه العلم التجريبي الثابت! حداثة تقوم على السيولة والتميع كمركب متهالك فوق موج بحر هائج، فإذا تشبّثت لا تجد في الشراع سوى أسمالًا بالية لا تثبُت في وجه التشبّث فكيف في صد العاصفة؟

لقد آن لزينب أن تفرض فرحتها وفرحها، ذلك الفرح الذي رسمت كل تفصيلة من تفاصيله، وخطّطت لكل لحظة من لحظاته الممتدّة مع زوج المستقبل، لم يتركا لحظة واحدة للاحتمالات أو الظروف، تخطيط على مستوى من الدقّة والتفصيل

كتخطيط فرقة خاصة من "الكوماندوز" لعملية استخباراتية على أعلى مستوى من الأهمية والخطورة!

لقد نجح التخطيط السابق لمناسبة الاحتفال بعقد الزواج قبل نحو ستة أشهر نجاحًا باهرًا، لم يكن كافيًا لإقناع "زينب" بأنه حاز التمام!

إذ يبقى خيال "زينب" الثري الخصب المتجدّد الممتد بلا حدود، أقوى من أي واقع يمكن تحقيقه على الأرض، ينتصب كنموذج عبقري مصغّر (ماكيت) لبناء مُزمع إنشاؤه، حيث لا يمكن للمبنى الواقعي أبدًا أن يماثل روعة النموذج المصغّر، فمهما بلغت دقّة التنفيذ وروعته فإن صغر حجم النموذج يجعل النظر له أمتع للعين، مع خاصية أخرى لا تقل أهمية تكمن في قدرة العين على الإحاطة بتفاصيل النموذج المصغّر، فيما لا يمكن الإحاطة التامّة بكل جزئيات الجمال في المبنى الكبير، بينما لزينب رأي آخر فهي ترى دائمًا أن النموذج المصغر هو الأصل بينما المبنى الكبير هو المحاكاة، إذ يسبق تصميم النموذج المصغّر دائمًا إنشاء المشروع الأساسي، كذلك الخيال الذي يسبق دائمًا الواقع، فيأتي نسخة محاكاة باهتة منه في أغلب الأحيان.

سيظل قلق "هدى" أُم "زينب" على ابنتها "زينب" أو "زيزي" كما يحلو لها أن تدلّلها، منصبّا على وقوف خيال ابنتها الجامح حاجزًا دائمًا أمام شعور السعادة الكاملة، فسعادتها دائمًا مبتورة ناقصة، والإفراط في التوقع يحول أبدًا دون تمام الواقع المعيش.

****

منذ تم الاتفاق مع "ياسين" على تحديد موعد عقد الزواج في بدايات الربيع، بعد فترة خِطبة استمرت نحو ستة أشهر، وبدأت المباحثات بين "هدى" و"زينب"

وشقيقتها "روان"، والأولاد "أحمد" و"ماجد" لترتيب حفل عقد قران لم تشهد المدينة مثله من قبل، فيه روح عُرس "هدى" على زوجها "عادل" قبل ثلاثين عامًا، مع اختلاف كُلّي في التقنية.

قالت "هدى":

- هذه مناسبة جميلة ونريد أن نفرح بصدق.

سكتت البنتان ولم تعلّق إحداهما على جملة الأُم، بينما تشاغل الولدان بما يعني انشغالهما بدراستهما الجامعية وأنشطتهما الشبابية عن التكليف بأي مهام محتملة أو أعباء لإقامة ما تعبّر عنه الأُم بـ نريد أن نفرح. نظرت الأم طويلًا إلى ابنتيها ووجّهت كلاما محدّدًا هذه المرة لهما:

- نريد أن نفرح، منذ زمن طويل لم تعرف فرحة حقيقية طريقها إلينا. أفراحنا كلها صغيرة عابرة تتبعها مسؤوليات كثيرة، كفرحتنا بنجاح أو انتقال من مرحلة دراسية لأخرى. لكن هذا أول فرح حقيقي كبير يدخل حياتنا منذ وفاة "عادل" -رحمه الله-.

رغم محاولتها لم تستطع قمع انحدار الدموع على وجنتيها واختناق صوتها. تحرّكت "زينب" الأقرب مجلسًا منها بسرعة فاحتضنتها ومدّت كفّها الرقيقة فمسحت دمعات الأُم، ونهضت "روان" وأقبلت ووضعت قبلة فوق رأسها، تمالكت الأُم زمام شجونها وقالت معتذرة:

- لا مجال للحزن الآن. لست حزينة إنما غلبني الحنين، إنها دموع الشوق لا دموع الحزن.

التقطت "زينب" طرف الحديث قالت وفي عينيها رجاء:

- قبل عقد الزواج نريد أن نزور قبر بابا –رحمه الله–.
- بكل تأكيد سنزوره بهذه المناسبة فهذا أقل واجب. لقد كان –يرحمه الله– على وقاره الشديد يحب الفرح والابتهاج ويكره النكد ويستعيذ بالله من الهم والحزن.

تأمّلت "زينب":

- حتى أنا يا ماما أريد أن نفرح جميعًا. ولكن إقامة احتفال بالعُرس سيتطلّب إمكانات مادية كبيرة، كما له أعباءه وتبعاته الاجتماعية، نحن مختلفون عن المجتمع، وإقامة عُرس في هذه الأجواء سيضعنا في مواجهة مع ذلك المجتمع، فهم يريدون منا أن نفرح بطريقتهم، ونحن لن نفرح بهذه الطريقة فسيصبح الاحتفال مواجهة وليس فرح!
- ولأننا مختلفون عن المجتمع يجب علينا أن نعلن فرحنا بطريقتنا، وثِقا أنّ مجرّد المحاولة لتقديم الفرح الجيد والإصرار عليه سيجعل له الله القبول ويفرح به الناس.

قالت "روان":

- كنا نفكّر أن نعقد الزواج بالمسجد ونقدّم الحلوى والمشروب ثم يكون احتفال عائلي ضيق في المساء يقتصر على الأهل المقربين جدًا من أقربائنا ومن عائلة العروس.

وجّهت "هدى" سؤالها لزينب:

- وما رأيك أنت يا عروس في اقتراح شقيقتك؟

- لقد عبّرت "روان" عن فكرتنا المشتركة عن الاحتفال بتلك المناسبة. هناك مساحة يجتمع فيها الناس لتحقيق الإشهار كشرط من شروط الزواج ويتم ذلك في المسجد تيمّنًا بالمسجد، ولن نُحرَم الفرح والابتهاج ولكن على نطاق ضيق لتجنّب تطفّل وتدخّل الآخرون في إدارة الاحتفال، سنبتهج ونفرح ولكن بيننا وبين أنفسنا.

تحفّظت "هدى" على الاقتراح قائلة:

- لا أُحبّذ إقامة عقد الزواج في المسجد مطلقًا هذه الأيام.

قاطعتها "روان" التي لم تستطع صبرا:

- أنت يا ماما مَن تقولين ذلك؟! ونحن نعرف أن عقد زواجك على أبي تمّ في المسجد وكنتما تفتخران بذلك!

غابت الأُم لحظات تسترجع ذكريات ذلك الزمن الجميل، قبل أن تجيب:

- لطالما كنتِ عجولة يا روان. أنا أحب أن يقام عقد الزواج في المسجد، في زمننا أنا ووالدك -رحمه الله-، كان المجتمع يحافظ على قدسية المسجد ورمزيته. كنا نقيم احتفال العُرس في المسجد، وكان الاحتفال يأخذ طابعًا دينيًا شرعيًا كما الاحتفال بذكرى الإسراء والمعراج، أو ذكرى الهجرة، أو ذكرى المولد النبوي الشريف. كانت توجد فرق تنظيم محتسِبة من الشباب والفتيات، وكانوا يشرفون على النظام. كانت الأخوات يُقبلن على الاحتفال محتشِمات، ويحرصن على التجمع في سندرة المسجد بعيدًا عن الاختلاط بالشباب، لم يكن الصوت يعلو داخل المسجد أبدًا، وكان الاحتفال يقتصر على كلمات يلقيها كبار الدعاة، ونشيد جميل يرفع الهمم

ويبهج النفوس، العُرس يبدأ بقراءة آيات بينات من سورة الروم تتناول نعمة الله على عباده بأن خلق لهم من أنفسهم أزواجًا ليسكنوا إليها، وينتهي بالدعاء المأثور للعروسين.

نطقت البنتان في لحظة واحدة بحبور:

- الله.

مما دفع "هدى" لاسترسالها في ذكرياتها الحلوة:

- ربما أقيمت زفّة للعروسين بعد الخروج من المسجد، حيث تذهب العروس في صحبة الصديقات إلى سيارة العُرس، ويتحلّق الشباب حول العروس ويبدءون في الغناء الجميل.

تساءلت "زينب" بشغف:

- هل تذكرين شيئًا مما كانوا يقولون في الزفّة؟
- كان هذا منذ زمن بعيد.. كانت الأغنيات كثيرة متنوّعة، لم أعد أذكر منها الكثير، لكن كان في كثير منها ذكر لله تعالى ومدح لسيدنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم-.
- صلى الله عليه وسلم، حاولي أن تتذكّري شيئًا قيل في عُرسك يا ماما نرجوك.

قالت البنتان في توق، سكتت الأم لحظات وارتفع بؤبؤا العينين إلى أعلى، واستعادت من مواطن الذكريات:

- كان الأخ "كمال" –وكان صديقًا لأبيكما_ يبدأ الهتاف بمجرّد خروج العروسان من المسجد، يقول: "يا أخي في الله أسمع الحياة.. نبدأ الزواج

بإقامة الصلاة.. نقتدي الرسول ولهما نقول، بارك الله لهما وبارك عليهما وجمع بينهما في خير"، والشباب المتحلّقون حول العروس يردّدون خلفه، ثم يرفع عقيرته بالغناء "الله الله هو الله.. الله الله هو الله.. أبو بكر مع عثمان، وعمر ويا سلمان، أحباب رسول الله.. الله الله هو الله". ياه كانت أيام!

تأمّلت "روان":

- ما أروع تلك الذكريات. ليتها تعود!
- كان كل شيء قائم على ثقافة الاحتساب والتطوّع، لم يكن أحد من هؤلاء يتقاضى أجرًا على عمله، فقد كان كُلّه حِسبة لله ونشرًا للخُلق الحسن والفرح الحلال.
- سبحان الله يا ماما تحدّثينا عن عالم كأنه كان قبل ألف عام!
- نعم يا "زينب" لكننا عشناه حقيقة واقعة قبل ثلاثين عامًا فقط.
- يا سعادتكم!

تساءلت "روان":

- لمَ إذن يا ماما ترفضين إقامة عقد زواج "زينب" في المسجد؟!
- لأن ما يحدث الآن في احتفالات الزواج بالمساجد لا يليق بمكانة المسجد وقدسيته في الدين، من دخول النساء والبنات إليه متبرّجات بأنواع مختلفة من الزينة والعطور، والملابس الضيقة اللامعة، وما يصاحب ذلك عادة من اختلاط ولغط، وارتفاع الزغاريد والضوضاء، وقيام بعض الأهالي بإطلاق الأعيرة النارية وصواريخ الصوت أمام باب المسجد، بما لا يناسب قدسية المكان والمناسبة بحال من الأحوال.

- نحن لن نفعل أي شيء من هذا يا ماما.
- صحيح أسرتنا لن تتورّط في فعل شيء من هذا. لكن هل نضمن الأقارب والأصدقاء؟ هل سنفرض عليهم ما يليق وما لا يليق من لباس وزينة ومن هرج ومرج؟ لقد غابت ثقافة احترام المناسبة، ولم يعد هناك مجال للتنظيم الجيد المحتسِب.
- إذا كنا لا نستطيع أن نضبط سلوك المدعوين لمناسبة العُرس في المسجد، فمن باب أولى أننا لن نستطيع ضبط هذا السلوك نفسه في قاعة أو نادٍ.

أجابت "هدى" في هدوء:

- صحيح لن نستطيع أن نفرض على الناس شيئًا من ثقافتنا، ولا يحق لنا أن نفعل ذلك، لكن على أقل تقدير نستطيع أن نبتعد بتلك الشوائب عن بيت الله حفاظًا على مكانته وقدسيته.

قالت "زينب":

- فلنكتفِ باحتفال عائلي صغير مساءً في إحدى الكافيهات الراقية.

تساءلت "هدى":

وكيف يتحقّق الإشهار المجتمعي الواسع إذن؟

- الإشهار يتم الآن على وسائل التواصل الاجتماعي على أوسع نطاق ممكن.
- ولكننا نريد أن نفرح. وسنفرح بمشيئة الله.

شائعة وتخبط وذكريات

تُصر "زينب" على الوقوف على أدق التفاصيل، وصنع المنمنمات الصغيرة جدًا حتى تكتمل الصورة الكُلية، تُغرق شقيقتها "روان" معها في متابعة تلك التفاصيل الدقيقة، "روان" أيضًا مولعة بالتفاصيل الدقيقة لكنها تملك بالإضافة إلى هذه الصفة، المرونة التي تجعلها تقبل بعض الفوضى المُحبّبة التي تعطي انطباعًا محبوبًا بالعفوية والبساطة، كما تدرك "روان" جيدًا الفرق بين النموذج المصغّر أو الخيال وبين تنفيذ المشروع على أرض الواقع، وتقتنع بأنه لا يمكن التطابق التام، لكن "زينب" لا تقبل من شقيقتها ما تعتبره تهاونًا في حق الدقّة والانضباط، تثور بينهما النزاعات طوال الوقت، و"روان" تدرك أن المناسبة خاصة بزينب فهي تحاول أن تصنع لها كل ما يسعدها، رغم استحالة تحقيق سعادتها، كما تدرك أنها مسؤولة بقدر أكبر من مسؤولية شقيقتها، فشقيقتها هي العروس ويجب على "روان" أن تدللّها وتمنحها قسطًا من الراحة على حساب نفسها وطاقتها وطبيعتها التي تميل للمرونة كأبيها، ورثت "زينب" أغلب صفاتها عن أمها "هدى"، فهي أيضًا تهتم كثيرًا بالتفاصيل الدقيقة وتطلب الكمال في الأداء، لكنها بحكم التجارب والخبرة وتَقدّم العُمر، أضحت اليوم أكثر تقبّلًا لشيء من العفوية المُبهجة.

الشقيقتان اتفقتا على أن يجعلا بعض فقرات الاحتفال بالعُرس مفاجأة لأُمهما ليحقّقا لها سعادة مضاعفة، ما دام أنها طلبت فرحة حقيقية صادقة وسعَت إليها، وكذلك الأُم تخطّط أن تفاجئ العروس والجميع ببعض المفاجآت في الاحتفال. لكن إصرار الطرفين على الاحتفاظ بأسرارهما حبيسة صدورهما صارت مُعيقة للعمل الجماعي بشكل ممتاز، فالطرفان على هذه الحال لا يعملان كفريق واحد وإنما كطرفين متنافسين، كل منهما يقصد قصب السبق، أدركت الأُم في مرحلة ما أن هذه الطريقة في التكتيك أضرارها أكثر من فوائدها، فاجتمعت مع ابنتيها وطالبتهما بعدم

إخفاء الأسرار عن بعضهم البعض وأن يعملوا معًا كفريق واحد وليس فريقين، تململت "زينب" في جلستها ولم تمرّر الفكرة مرور الكرام، تدخّلت "روان" لإنقاذ الموقف، قالت:

- موافقون يا ماما بشرط. أن تصارحينا أولًا بأسرارك ومفاجآتك بخصوص الاحتفال.

فكّرت "هدى" في موقف ابنتيها دقيقة، ثم قالت:

- موافقة يا "روان" بشرط سأحتفظ بمفاجأة واحدة فقط. وأعدكما بأن هذه المفاجأة لن تؤثّر بأي حال على مسار الاحتفال فهي إضافة وليست بدلًا عن شيء في البرنامج.

هتفت الفتاتان في صوت واحد:

- بل نريد أن نعرف أولًا وقبل كل شيء هذه المفاجأة بالذات.

اتسعت ابتسامة "هدى"، وقالت:

- أبقيا لي هذه المفاجأة فقط ووعد مني أنها ستعجبكما، ووعد آخر أنها لن تؤثّر على سير الاحتفال.

قبلت الشقيقتان شرط الأُم على مضض وتململ، وبدأتا تخمين كُنه تلك المفاجأة. وإن لم تخفِ "زينب" تشكّكها المتبرّم وخاصة أمام أُمها لحثّها على البوح بسرها الدفين، بينما تكتفي "هدى" بابتسامتها الواثقة.

تم تجهيز بطاقات المناسبة للذكرى من ورق الكِرافت على شكل أقرب لشكل الميداليات، وتم شراء أفخر نوع حلوى شيكولاتة محلية في السوق، شيكولاتة بالبندق

وباللوز، تم لصقها بعناية على ظهر بطاقة المناسبة التي تحمل اسم العروسين وتاريخ العقد، وحجز إحدى قاعات الأفراح لفترة نهارية بما يتناسب أكثر مع ظروف القادمين من سفر من أقارب العروسين، لا سيما أهل العروس القادمون من مدينة أسيوط، أسرّت "هدى" لابنها مهندس "أحمد" الذي يدرس في السنة النهائية لكلية الهندسة، بمفاجأتها المرتقبة، وطلبت منه أن يتمّم الاتفاق مع المنشد البحراوي "أحمد عبد الباعث" ليقدّم فقرات إنشاد متنوّعة ضمن برنامج الاحتفال، يتميّز "أحمد" بقدرته الفائقة على كتمان السر، فعندما يأتمنه أحدهم على سر فإنه أبعد من المستحيل أن يستنطقه أحد أو أن يستشف منه أحد ما يكتمه أو يحتفظ به، و"هدى" عندما تمرّر له سر أو معلومة لا تُعد نفسها سوى أنها حدّثت نفسها فقط بصوت مسموع موقنة بأن سرها مستور في أعماق بئر غائرة.

اختارت الفتاتان أُغنيات الإذاعة الداخلية للقاعة (D G) بعناية فائقة كأنهما ينسّقان باقة زهور في غاية الرقة والجمال، لتنساب الموسيقى والكلمات هادئة وقورة ناعمة ومنعشة، وتكفّل المنشد "أحمد عبد الوارث" بصنع جو من البهجة مع الحضور بروائع أناشيد المديح مثل أسماء الله الحسنى، وقمر سيدنا النبي، وغيرها من الابتهالات والأناشيد الروحية رفيعة المقام، وقامت "روان" بافتتاح حفل عقد الزواج بتلاوة آيات بيّنات من سورة الروم من أول قوله تعالى: **(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)** سورة الروم٢١، صوت "روان" صوت سماوي مبدع ومؤثّر، أحبت أن تُهدي "زينب" إضافة إلى تلك التلاوة الافتتاحية المباركة لآيات من كتاب الله، نشيدًا جميلًا، لكنّ شقيقها "أحمد" حينما أحس أن هناك أمر ما يدبر بليل، احتج احتجاجًا شديدًا، وقال لوالدته:

- لا أحب أن شقيقتي تنشد في حفل عام، ولو أصررتم على هذا الأمر، فإنني سأعتذر عن دعوة أصدقائي لحضور المناسبة.

تناقشت "هدى" مع "روان" مطوّلًا، فهي تشجّعها على الإنشاد، وربما تشارك بعض إبداعاتها على حسابها على الفيس بوك، لكنها قالت لها:

- الفقه يا ابنتي فقهان، فقه شرعي يعتمد على فهم النص الشرعي، وفقه الواقع أو فقه المجتمع، ومن أحكم الحكمة عدم مواجهة المجتمع بما يكره.

احتجّت "روان" كثيرًا وتذمّرت وأطالت النقاش، واستوعبتها "هدى" بحنانها وحكمتها.

وأقبل الأستاذ "أحمد" المأذون الشرعي المعتمَد لحي العروس، لأداء مراسم إشهار عقد الزواج فنشر قسائمه ووضع الختّامة، وألصق صور العروسين بالاستمارات، وسجّل البيانات وأخذ التوقيعات والبصمات للعروسين وولي عقد العروس والشاهدين، ثم بدأ في إلقاء خِطبة النكاح، فلما انتهى ارتفعت الزغاريد، وتسابقت فتيات العائلتين في إلقاء المناديل التذكارية نحو الأستاذ "أحمد" ليستخدم أحدها في تغطية يد العروس ويد ولي العقد على ما اعتاد عليه المصريون في عقد الزواج، وأقبلت أُم "ياسين" وعلى وجهها ابتسامة هادئة، فرتّبت المناديل كلها بعضها فوق بعض ونثرتها فوق يد ابنها وولي العروس، وحرصت على أن تجعل المنديل الذي اشتغلته ابنتها "شيماء" شقيقة "ياسين" بنفسها كهدية له، فوق كل المناديل الأخرى ليكون هو الظاهر في كل لقطات التصوير الثابت والمتحرّك (الفيديو)، ثم طلب المأذون من الحضور قراءة الفاتحة، وبعد ذلك بدأ الأستاذ "أحمد" في تلقين ولي العروس بعد حمد الله والثناء على رسول الله ثم يبدأ بقوله:

- إني استخرت الله وزوّجتك موكّلتي زينب بنت عادل الفلاني البكر البالغ الرشيد على كتاب الله وعلى سُنّة رسول الله وعلى الصداق المسمّى بيننا عاجله وآجله والحضور شهود على ذلك والله خير الشاهدين.

ومثل ذلك ردّد العروس "ياسين" خلف الأستاذ "أحمد". ثم دعا الأستاذ "أحمد" للعروسين طالبًا من الحضور الترديد:

- أن بارك الله لكما وبارك عليكما وجمع بينكما في خير.

ضجّت القاعة بالزغاريد، وأقبل جُل المدعوين لاحتضان العروسين، وأخيرًا اصطحب "ياسين" "زينب" للصعود إلى منصة العروسين (الكوشة) مرة أخرى وصدحت الأناشيد.

تم الفرح بلا رقص! لم يرقص شباب المدعوين وفتياتهم، ولم يرقص الزوج وعروسه، بل استمسكا بمقعديهما لا يقومان إلا للتصوير مع الأقارب والمعارف والأصدقاء!

ولم ترتفع أغاني المهرجانات التي تصنع جوًا مسمومًا من التلوّث السمعي والبصري على السواء، ولم يعلو صوت الموسيقى صاخبًا بحيث يطغى على الآذان فيصيبها بما يشبه الصمم، ويرفع ضغط دم مرضى ضغط الدم المرتفع.

كل شيء في الفرح كان ناعمًا جميلًا رزينًا، فيه جمال وتغشاه سكينة محفوف بحب وهدوء.

وتمتمت "هدى" تحمد الله تعالى، فطالما حلمت بأن أفراح أبنائها وبناتها تكون أفراحًا حلال، لا منكرات فيها ولا معاصي وذنوب.

ورضيت "زيزي" على الرغم من صعوبة إرضائها، ورغم أن الفرح لم يحقّق مستوى التمام، إلا أن الله تعالى ألقى في قلبها الرضى، فرضيت.

وشعر "ياسين" بالتميّز والامتنان، وشهد لأسرة عروسه بالرقي والاحترام.

أما غاية السعادة فكانت ترفرف حقيقة على أسرتي العروسين، فهؤلاء هم فقط من علموا أن مراسم إشهار العقد في القاعة اليوم كانت صورية، لأن العقد الرسمي كان قد تم كتابته في مكتب الأستاذ "أحمد" مأذون الحي قبل نحو أسبوعين من اليوم.

ومرور مراسم الإشهار هكذا بسلاسة دون أن يلحظ المدعوون صوريتها كان أمل أفراد الأسرتين!

"زينب" و"روان" تتذكّران عندما ملأت الشائعات مواقع التواصل الاجتماعي في أواخر شهر ديسمبر من العام المنصرم، إذ أطلق صاحب حساب على الفيس بوك يحمل اسم "المأذون الشرعي"، منشورًا قال فيه: "قانون الأحوال الشخصية الجديد الزوج لا بد أن يدفع في صندوق الزواج المزمع إنشاؤه تقريبًا من عشرين إلى ثلاثين ألف جنيه، والقانون بصدد الصدور الآن".

ثم أضاف منشورًا آخر قال فيه:

"الإخوة الذين حجزوا لدى المكتب عقد زواج خلال شهر يناير ٢٠٢٣م نصيحة لهم عجّلوا بالعقد إن استطعتم لأن القانون الجديد سيصدر خلال أيام".

لقد أصاب هذا المنشور على صفحة "المأذون الشرعي" آلاف المقبلين على الزواج بمصر وذويهم بهلع شديد، وهُرعت الشقيقتان إلى أُمهما يبلغانها الخبر ويقترحون تعجيل عقد الزواج كما يفعل الآلاف خلال الأيام الثلاثة المتبقّية على

نهاية العام، وقبل بداية شهر يناير من العام الجديد. ابتسمت "هدى" ابتسامتها الهادئة وقالت في اطمئنان عجيب:

- مهما يكن من أمر نحن نعيش في دولة فيها الأزهر الشريف منارة الإسلام، ولا يمكن تمرير مثل هكذا قانون دون موافقة شيخ الأزهر. وشيخ الأزهر لن يعتمد مثل هذا القانون أبدًا.
- من أين تأتين بهذه الثقة يا ماما؟
- ثِقا في يقيني، ولن تُخذلا.
- لكن يا ماما الأخبار تأتي الآن من داخل الوحدات الصحية التي تُصدر الشهادات الصحية المطلوبة ضمن إجراءات العقد، وتقول أن عشرات الألوف يحتشدون حالًا في تلك الوحدات من أجل استخراج الشهادات الصحية، وكتابة العقد بحد أقصى يوم الجمعة الموافق الحادي والثلاثين من ديسمبر.
- اطمئنوا لن يحدث شيء من هذا على الرغم من كل ذلك اللغط.

انصرفت الشقيقتان وهما بين القلق والشك والرغبة في تصديق يقين الأُم.

في اليوم التالي نفت برامج (التوك شو) العديدة شائعة "المأذون الشرعي"، وسرعان ما أحالته النيابة العامة للقضاء، وتم نفي الشائعة نفيًا حاسمًا مشدّدًا، وعلى الرغم من ذلك فإن الآلاف من الفتيان والفتيات وأُسرهم لم يصدّقوا التصريحات الرسمية ولا البرامج الفضائية، وعقدوا نكاحهم قبل نهاية العام وخلال ثلاثة أيام فقط!

****

عندما جلس مهندس "ياسين" مع "هدى" وابنها "أحمد" لتحديد موعد عقد الزواج رأت "هدى" أن الموعد المناسب عقب عيد الفطر مباشرة. رجاها "ياسين" أن

يكون قبل شهر رمضان، فوعدته بالتفكير في الأمر. واستطلعت رأي "زيزي" في الموعد الذي اقترحته. انحازت "زيزي" لرجاء "ياسين" وتضامنت معها "روان".

لم تقتنع "هدى" بمبررات الجميع. تحب أن يكون الاحتفال موافقًا للعيد فهو أمر مُبهج وفأل حسن.

حسم "أحمد" الاختيار لمصلحة "ياسين" وشقيقته قال لهدى:

- بعد العيد سيكون أوج انهماكي في إعداد مشروع التخرج ولن يكون لدي مُتسع للوقت أتنفّس فيه.

وقال "ماجد":

- عندي ارتباط بدورة ترقّي للقسم الأول في الدوري تنتهي منتصف شهر مارس وبعد ذلك أنا تحت أمركم.

اختارت "هدى" يوم الجمعة الأخيرة في شهر شعبان "الجمعة اليتيمة" التي توافق السابع عشر من شهر مارس لتكون موعدًا يتوافق عليه الجميع لعقد الزواج.

****

في الأسبوع الأخير من شهر فبراير بدأت "زينب" في مراجعة الوحدة الصحية لاستخراج الشهادات الطبية اللازمة لإجراءات العقد، أخبرتها مديرة الوحدة بقرار إيقاف العمل بنظام الشهادات الطبية القديمة، في انتظار تعليمات بخصوص الشروط والتحاليل الطبية الجديدة، والرسوم المقرّرة للنظام الجديد، والذي ينتظر أن يبدأ العمل به بداية شهر مارس. ما أصاب الفتاة بحيرة وتوتّر.

توجّست الأسرة، حتى "هدى" اعتراها قلق، سألتها "روان":

- لماذا القلق يا ماما ومن قبل كنتِ واثقة كل الثقة في عدم تعقيد الإجراءات؟

أشاحت "هدى" بوجهها وهمهمت:

- القرارات الصحية لن تُعرض على الأزهر!

في اليوم التالي قامت "زينب" بمحاولة في المستشفى الجامعي بناء على نصيحة إحدى الصديقات، وبالفعل نجحت في استخراج الشهادات الطبية المطلوبة وفق النظام القديم. قيل لها أنها ما زالت سارية العمل بها!

وذهب "أحمد" برفقة شقيقته إلى مكتب الأستاذ المأذون لإطلاعه على المستندات المطلوبة وتأكيد موعد العقد عصر يوم السابع عشر من مارس. ثم أخيرًا ترك له رقم هاتفه المحمول ورجاه أن يتواصل معه إذا جدّ قرار جديد بخصوص الشهادات الطبية، فطمأنه الأستاذ وهدّأ من روعه.

بعد نحو أسبوع هاتَف الأستاذ المأذون "أحمد" وأخبره أن يوم غد هو آخر يوم للعمل بالشهادات الصحية بالنظام القديم، وأن نظام الشهادات الجديدة لم يبدأ إصداره بعد، ولذلك فلا بد من كتابة العقد بحد أقصى يوم غد.

كانت مفاجأة قاسية وغير منطقية، عقّبت "هدى":

- كيف يكون هذا؟ إن معنى هذا التخبّط أن تتوقّف عقود الزواج وتغلق مكاتب المآذين أبوابها نحو أسبوعين من الزمان! من يرضى بذلك؟

وأصبح لزامًا على الأسرة أن تتحرّك بسرعة، العروس "ياسين" يعمل بالقاهرة، وأهله يقيمون في مدينتهم أسيوط قلب صعيد مصر.

جاء "ياسين" على عجل، وتمّت مفاوضات مطوّلة مع والدي "ياسين" لإقناعهما بضرورة الاستجابة للأمر الواقع.

عزّ على الوالدين أن يُعقد زواج ابنهما الوحيد دون حضورهما وكبار العائلة، حتى بكى الأب بكاءً مرًا، وحاولت الأُم التماسك فلم تستطع فانهارت باكية.

طيّرت أخبار هذا القرار الصادم غير مدروس التبعات والآثار مواقع التواصل الاجتماعي، ونقلت عنها البوابات الإلكترونية للصحف اليومية، وتناولته البرامج الفضائية في المساء، وأثار لغطًا أشد من الشائعة الأولى التي أطلقها حساب "المأذون الشرعي" على الفيس بوك.

أضحى القرار حقيقة واقعة وأذعنت أسرة "ياسين" للقرار، على أن يظل العقد سرًا كأنه لم يكن، حتى يجتمع الأهل والأحباب على مناسبة الاحتفال بالعقد في موعده المتّفق عليه.

في غرفة مكتب الأستاذ "أحمد" مأذون الحي التي تتسع لعدد أربع أفراد بالكاد، انحشر "ياسين" و"زينب" و"هدى" و"روان" وشقيقي العروس "أحمد" و"ماجد" وخالهم "محمد" كشاهد أول، بينما لعب "ماجد" دور الشاهد الثاني و"أحمد" دور ولي العروس، وهكذا تم العقد الرسمي الذي ستوثّقه الدولة، وتكفّلت "روان" بتصوير وقائعه وبثّه مباشرة لتتابعه أسرة "ياسين" في أسيوط، بين دموع سخية وزغاريد مغتصبة!

****

في اليوم التالي لحفل الزواج تلّقت "هدى" اتصالًا هاتفيًا من السيدة "أُم معاذ" صديقتها منذ مرحلة الصبا، وبعد أن أكدّت تهنئتها بالمناسبة السعيدة، ودعت للعروسين بخير، وتمنّت العُقبى لروان، شكرت "هدى" قائلة:

- جزاكم الله كل خير والله يا حبيبتي. لقد أقمتم فرحًا ذكّرنا بروائح الزمن الجميل. ذكّرتني بعُرسي وعُرسك.

واسترسلت تحكي كأنها في حديثها عن الذكريات تتذوّق طعم الأفراح الشهية الفائتة قالت:

- تذكُرين؟ كان احتفال عُرسي في قاعة "جرين لاند" وكان احتفالًا ساهرًا قشيبًا، أحياه المهندس "زين" "أبو عابد" الذي حرص على الحضور خصّيصًا من مدينته المحلة الكبرى لمشاركة "أبو معاذ" -رحمه الله- فرحته. لقد أحيا الحفل بأهازيج جميلة ما زلت أذكر منها أنشودة "من فوق مآذن حينا جايين بنعلن عرسنا... جايين نبارك كلنا... مبروك يا غالي يا غالي عندنا... والليلة دي ليلة الهنا".

هل تذكرين يا "هدى"؟ كان نشيدًا جديدًا، غنّاه لأول مرة في فرحي على "أبي معاذ" عليه رحمة الله، قبل أن يفتتح به الألبوم الأول لفرقة الندى الأفراح.

أهاج اتصال "أُم معاذ" الهاتفي جذوة ذكريات "هدى" المشتعلة أسفل رماد كثيف محترق مع بقايا قلب. كم كان "عادل" يحب هذا النشيد. وجدت نفسها تبحث في اليوتيوب عن الأغنية وتعيد تشغيلها مرات عديدة، في كل مرّة تتوقّف عند المقطع الذي كان يأسره بجماله:

"العفّة توب راح تنسجه.... لعروستك اللي اخترتها

أوعى الخمار يوم تخلعه.... أحسن دا شرعة ربها

سيبنا من الموضة بقى... ده احنا انكوينا بلبسها

راح نرجع تاني للأصول... ونبني تاني عزنا".

https://www.youtube.com/watch?v=xZpmtDchoh0&t=126s

كان صوت المهندس "زين" الشهير بـ"أبي عابد"، أقرب شبهًا بصوت المطرب "محمد رشدي". يا لها من ذكريات تثير الحنين وتنثر الشجون، ما أعظمها أيام الحِسبة والمحتسبين في كل مجال. أين المحتسبون اليوم؟!

نجاح حزين

"زينب" أيقونة حب، قبل ميلادها اتفق "عادل" وزوجته "هدى" على اختيار اسم "زينب" لها على اسم السيدة "زينب" ابنة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– والسيدة "خديجة بنت خويلد"، يقول "عادل" كثيرًا لهدى:

- السيدة "زينب" ابنة النبي –صلى الله عليه وسلم– هي أيقونة الحب والإيمان في التاريخ كله.

عاش "عادل" مثقّفًا ذا ذوق وإحساس ديني أصيل، واطّلاع جيد على التراث. بينما عاشت "هدى" مؤمنة بالاحتساب ومنتمية له، فهي بنت ثقافة الاحتساب وداعيته. والاحتساب في المعنى التراثي يماثل التطوّع أو العمل التطوّعي في المدنية المعاصرة.

تؤمن "هدى" أن الدال على الخير كفاعله، وأن نشر الوعي يُعبّد واعر طرقات المستقبل للأجيال القادمة.

أقعدها طول الغربة عن السعي بين الناس بالوعي، وفتّشت في خصالها وملكاتها عمّا يعوّض السعي ويَجبر القعود، فوجدت نفسها تملك موهبة الكتابة، وجلَد البحث ودأبه، شجّعها "عادل" وتهيّأت لها الظروف فاستطاعت أن تنشر ما تتواصل به مع الناس عبر القراءة.

أحبّت "زينب" القراءة وشُغفت في البداية بقراءة ما تكتبه أُمها، ثم نهم شغفها لقراءة كل ما يمكنها قراءته لمختلف الكتّاب وشتّى الثقافات والبيئات، وورثت مسؤولية الكتابة بألمها وآمالها، ووراثة الكتابة ليست وراثة جينية، فما كان لهدى نفسها أن

تُحمّل نفسها عناء مسؤولية الكتابة لو أنها ظلت تسعى بين الناس بالوعي، لكنها استقرّت على الكتابة كبديل وليس كسجيّة من سجيّاتها.

ورثت "زينب" الحالة الثقافية للأسرة. فجمعت بين شغف القراءة العميقة المستبصرة في كل ميدان. وأثقلت موهبة البوح والكتابة لديها، وألمّت إلمامًا عامًا بالتراث.

فبدأت تظهر لها مقالات في الصحف والبوابات الإلكترونية للمواقع الثقافية قبل أن تتجاوز الثالثة عشر من عُمرها!

ولم يكن ما يُنشر لها مُعبّرًا عن رؤى أطفال، ولكنها كانت تكتب في الشأن المجتمعي العام! وتعبّر عن بعض مشاعر وأحاسيس شخصية بأسلوب أدبي جميل.

لم يمكث "عادل" في الحياة طويلا ليرَ براعم وأكمام نبتته الغضّة تتفتّح أزهارها الجميلة وتكاد تؤتي ثمرها، وإنما غادرها في طفولتها المبكِّرة.

أمّا "هدى" فراقبت النبتة الطرية وهي تُخرج براعمها الخضراء النضرة، ورعتها واعتنت بها وظلّت تسكب فيها من روحها، وكذلك تفعل مع "روان" والشقيقين، حتى بدأت بواكير الثمار، فأوكلت الأُم إلى "زينب" مسؤولية مراجعة كل ما تكتب، كان ذلك ربما يشق عليها مع أعباء الدراسة ولهو الطفولة، لكنه يزيد رسوخها في دنيا الثقافة والفكر والأدب، وما لبثت بعدما أبدت "زينب" تفوّقًا ملحوظًا في دقّة التدقيق والمراجعة اللُغوية، أن فوّضت لها أمر المراجعة كاملًا واعتمدتها المراجعة الرسمية لكل كتابتها.

ولهدى إنتاج ثقافي ورصيد كبير من المقالات الفكرية، طوّفت به الناطقين بالعربية حول العالم، فنُشرت لها مقالات في صحف ومجلات الخليج واليمن وإيران

وتونس والجزائر والمغرب وبعض الصحف العربية التي تصدر من لندن، وفي مصر. غير أن مساحة اسمها على خريطة الوسط الثقافي التي ترسم مجتمعًا من دم ولحم، ظلت ضئيلة جدًا لا تكاد تُرى، كأنها تنشر تحت اسم مستعار، تُقرأ كتاباتها ولا يلتفت القارئ إلى صاحبة التوقيع!

ورأت "زينب" –رغم تفوّقها الواضح في الشأن الثقافي– نفسها طبيبة المستقبل تداوي المرضى وتجتث آلامهم، لعل معاناة أبيها من مرض عُضال قُبيل وفاته، دفعتها إلى التفكير في تلك المهنة باعتبارها مهنة **(وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً)**، فالطب إن لم يستطع أن يهب للناس الحياة بالتشخيص المبكّر والعلاج الناجع بإذن الشافي، فهو يسكّن آلام المرضى المبرحة ليستكملوا أنفاسهم المعدودة في هذه الحياة دون أن يضجروا أو يكتئبوا من شدة الألم.

وسعَت "زينب" مبكّرًا للتفوّق لتصبح جديرة بالالتحاق بمهنة الطب، ودأبت على التثقّف بكل ما يمت للثقافة الطبية بصلة، تقرأ في الطب وعن الطب، وتخالط زوجة خالها الكبير "بهاء" فهي طبيبة، ولا تترك مناسبة يُذكر فيها الطب والأطباء إلا حرصت على شهودها.

وأُمها "هدى" تشفق عليها إذ تراها ترهق نفسها حد الإعياء والهزال في الثانوية العامة، فتخفّف عنها قائلة:

- لا بأس بالصيدلة فهي مهنة من مهن الطب وهي المسؤولة عمليًا عن تقديم الدواء للمرضى.
- بل طبيبة جرّاحة يا ماما، لا محيد عن الهدف، فهو الحياة.
- عظيم يا حبيبتي أن يكون لك هدف شديد الوضوح. أيضا يجب أن تكون لديك بدائل فالأمور تسير بمقادير.

- إن شاء الله طب.
- ربنا يوفّقك ويعطيك كل ما يُرضيك.

اجتهدت "زينب" وسعها، أو أكثر من وسعها، خاصة وأنها تمر بظروف صحية في غاية الصعوبة، رغم آلامها المبرحة تجتهد فوق الحد، لكن الامتحانات النهائية لا تعترف بالاجتهاد وحده مهما بلغ التمام، قوة الأعصاب وثباتها، ظروف التصحيح وأحواله! تشهد "هدى" لابنتها أنها فقدت درجة كاملة في مادة "الفيزياء" لأنها أجابت إجابة صحيحة من شطرين وكان نموذج الإجابة قد أورد الشطر الأول ولم يورد التكملة، عدّ المُصحّح إجابة "زينب" إجابة خاطئة، مع أن الشطر الأول من إجابتها أتى متوافقًا مع نموذج الوزارة بالحرف، والشطرة الزائدة كانت تتمّة معقولة ومقبولة لا تنقض المعنى ولا تضاده!

كان هذا مثالًا واحدًا فقط على تجاوزات أخرى للمصحّحين في امتحان مادة واحدة، حيث اشتكى الطلاب من مسألة قالوا عنها: مستحيلة الحل. وصرّحت الوزارة بتوزيع درجة المسألة على باقي الأسئلة، الأمر الذي لم يلتزم به المصححون في ورقة إجابة "زينب" على الأقل!

جاءت اكتشافات "هدى" عندما قرّرت مراجعة ورقة إجابة ابنتها، فتأكّدت أن القدر وحده هو الذي فرض النتيجة المعلنة.

حصلت "زينب" في الثانوية العامة على نسبة ستة وتسعين في المائة ممّا أبعدها عن كلية الطب بنحو اثنين في المائة وفق تنسيق ذلك العام. بكت "هدى" كما لم تبكِ من قبل، بكت بحرقة ومرارة ووجع، تذوّقت طعم الهزيمة القاسية القاصمة، سألتها "زينب" الحزينة المحبَطة وجلة:

- هل أنت غاضبة مني يا ماما؟

- أنا مكسورة لأجلك يا حبيبتي، أنا أشهد أنك لم تقصري، ولكم تمنيت أن يدخل الفرح قلبك. فلنرضَ بمشيئة الله.

همهمت "زينب":

- الحمد لله على كل حال. قدّر الله وما شاء فعل.

لا يمكن وصف ما شعرت به "زينب" عقب ظهور نتيجة الثانوية العامة، لم يكن حزن، إحباط، ضياع، اسوداد الأفق، تعجز الأوصاف، هو شيء أشبه بإغلاق قبر معتم وصغير، رطب، عفن الهواء، نتن الرائحة، على شخص حي معصوب العينين مكتوف اليدين، مربوط الرجلين!

انغلق باب القبر فوق آمال الحياة وأحلامها وشغفها ونداءاتها فأقبرها إلى أبد الآبدين.

لم يبقَ خارج القبر المظلم، سوى خواء وضياع ولا شيء.

تماسكت الجدة أُم "هدى"، أو حاولت التماسك، أو ادّعت التماسك، وقرّرت إخراج الأسرة من حالة الحزن العميقة التي سيطرت عليها، فدعت "هدى" وأبناءها إلى الخروج بمناسبة نجاح زينب، وقرّرت الاحتفال بهم فدعتهم إلى حلواني "لي لودي"، وطلبت كعكة "تورتة" مميّزة على شكل قلب، أنزل النادل طلب الجدة مع المشروبات الباردة. استنتج مدير الصالة أن الأسرة تجتمع من أجل الاحتفال بمناسبة ما، حاول استشفاف نوع المناسبة، لم يقرأ في الوجوه سوى الوجوم، خمّن أنها ربما تكون يوم ميلاد، فطلب من مجموعة العمل إطفاء الأنوار الصاخبة، مكتفيا بإضاءة حالمة، وبدأت تنبعث نغمات موسيقى "happy birth day to you"، فنهض "أحمد" وأخبر الفريق أن المناسبة نجاح وليست يوم ميلاد.

بسرعة انطلقت أغنية "عبد الحليم حافظ":

"وحياة قلبي وأفراحه، وهناه في مساه وصباحه

ما لقيت فرحان في الدنيا زي الفرحان بنجاحه"

فلمّا وصلت الأغنية إلى: " الناجح يرفع ايده" حاول الولدان أن يهتفا بمرح، وشاركتهما الجدة، لكن "زينب" شهقت بالبكاء، تبعتها "روان" و"هدى"، وغصّت حناجر الجدة والأولاد، فاختنقت الكلمات. إنه أصعب احتفال نجاح يمكن أن يعيشه متفوّق قُبرت أحلامه!

على الرغم من تعدّد البدائل الجامعية المتاحة أمام "زينب" في مدينتها، والمدن القريبة منها، استقرت على الالتحاق بكلّية إعلام جامعة القاهرة، قالت "هدى":

- خُلقت كي تصبحي إعلامية يا زيزي.

أجابت بأسى:

- ظننت أنني خُلقت لأصبح طبيبة.

وُزّعت أقدار المستقبل على مئات الألوف من الشباب والفتيات، وحُدّدت مهنة كل منهم أو اتجاهه المستقبلي في الحياة، واستقرت "زينب" في كلّية الإعلام جامعة القاهرة، حيث حافظت على تفوقها رغم أنف إحباطات الواقع وإكراهاته، فحازت دائمًا على تقدير ممتاز في كل سنوات الدراسة. واختارت قسم صحافة باعتباره المجال الذي أحبته كثيرًا وكانت تحلم بأن يظل هوايتها المفضلة عندما تحترف الطب!

****

من كان يعلم أن الأقدار ترتّب أمرًا يصنع لزينب فرحًا دائمًا؟ وأن التحاق "زيزي" بأي كلّية غير كلّية إعلام جامعة القاهرة قسم صحافة، غالبًا سيحرمها من قصتها الكبرى؟!

****

ربما لم تعِ "زينب" من حقبة حياة والدها إلا بعض ذكريات طفولية غائمة، لكن القيم التي تربّت عليها، وعبّرت عنها وهي تغادر بيت العائلة إلى بيت الزوجية، ترجع أغلبها لغرس أُمها.

بعض هذه القيم تحرص "هدى" على نسبته إلى الأب "عادل" فتقول مثلًا:

- لقد تعلّمت من أبيك –رحمه الله– الرضى على كل حال.

تعلّمت "زينب" من أُمها كثيرًا من القيم النبيلة القيمة، لكنها تذكر منها بصفة خاصة ثلاث قيم:

قيمة الحلال والحرص عليه، فهدى لا تعدل بمصطلح الحلال مصطلحًا مستحدثًا آخر، لا مصطلح "إسلامي" ولا غيره من المصطلحات، تتحدّث كثيرًا مع أبنائها ومع الناس عن الحياة الحلال، والعمل الحلال، والرزق الحلال، والتريّض الحلال. حتى فرح زيزي بكل تفاصيله حرصت أن يكون فرحًا حلالًا! وكثيرًا ما تستشهد بقول الله تعالى **(حلالا طيبا)**.

وقيمة الحب، والحب لا ينفك لديها عن مصطلح الحلال، فلا معنى لحب شيء يبغضه المولى أو يحرّمه، تسألها كثيرًا:

- هل تدركين لمَ كان أبوك يردّد كثيرًا أن السيدة "زينب" بنت النبي صلى الله عليه وسلم أيقونة الحب والإيمان عبر الزمن؟

تنظر "زيزي" إلى أُمها يلمع في عينيها شغف المعرفة، تضيف "هدى":

- ارتبطت السيدة زينب بزوجها وابن خالتها "أبي العاص بن الربيع"، كان ذلك قبل البعثة النبوية، وكان "أبي العاص" شهمًا كريمًا، تاجرًا أمينًا صادقًا، حلو المعشر، رفيقًا بأهل بيته، فلما بُعث النبي صلى الله عليه وسلم، وكذّبته قريش وحاولت إيذائه وصدّه، فمشوا إلى "أبي العاص" وطلبوا منه أن يطلّق "زينب" بنت محمد، على أن يزوّجوه بأي امرأة من مكّة يريدها، فبان معدن "أبي العاص" وقال: لا أريد مفارقة أهلي وما أعدلها بأي امرأة من مكّة! ظل "أبو العاص" على شِركه ولكنه كان رجلًا، بينما استجابت "زينب" لدعوة أبيها فأسلمت، ولم تكن آيات تحريم زواج المشرك من مؤمنة قد نزلت بعد، فظلّت في عصمته، وبعد هجرة سيدنا رسول الله صل الله عليه وسلم، وخروج المشركين من قريش لحرب المسلمين عند بدر، تجهّز "أبو العاص" ليخرج مع قومه، وحاولت "زينب" إثناءه عن الخروج لحرب أبيها، فلم يسعه التخلّف عن قومه فخرج معهم، وأَسره جيش الإسلام، وكان الله قد نصرهم في بدر بعزّته وهم أذلة مستضعفين، فلمّا علمت "زينب" بأسره، أرسلت في فدائه مالًا وفيه قلادة ذهبية كانت أهدتها لها أُمها السيدة "خديجة بنت خويلد" يوم زواجها بأبي العاص، فلمّا وقعت القلادة الذهبية في يد سيدنا رسول الله الشريفة، عرفها، فقد كانت في الأصل قلادة زوجته الحبيبة "خديجة"، فرّق لها رقّة شديدة عرف الصحابة الكرام أثرها في وجهه، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: هذه قلادة أُمكم "خديجة" بعثت بها ابنتها "زينب" في فداء زوجها "أبي العاص بن الربيع"، فإن طبتم نفسًا بأن تقبلوها فذاك، وإن رأيتم أن تردّوها عليها وتُطلقوا لها أسيرها فافعلوا. فردّوها عليها وأطلقوا "أبا العاص

بن الربيع"، وطلب منه النبي صلى الله عليه وسلم أن يسمح بهجرة "زينب" إلى المدينة، بما يعني حتمية الفراق بين "أبي العاص" و"زينب".

تنظر "هدى" إلى عيني "زيزي" المفتوحتين عن اتسعاهما في استغراق ودَهش، ورغبة نهمة في استكمال القصة الشيقة، تصمت الأُم لحظات، تستحثّها "زيزي" لإكمال روايتها، فتبتسم الأُم، وتقول:

- بل نستكملها في مرة قادمة إن شاء الله، فقد سرقنا الوقت.

تذهب محاولات زيزي سُدى، لم تستسلم، ستقرأ تتمّة قصة السيدة "زينب" بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع "أبي العاص بن الربيع"، في مصادرها الأصلية، ورغم معرفتها بنهاية القصة، إلا أن شوقها لطريقة حكي أُمها المؤثّر للموضوع يُبقي على شغفها متصلًا حتى يأتي التمام من "هدى".

القيمة الثالثة التي حفظتها عن أُمها، هي قيمة الرضى بمقادير الله، فالرضى من الإيمان.

اغتراب مجتمعي

أمر ما في حياة أسرة "زيزي" جعل منها على غير ما يرام من الوجهة الاجتماعية!

نبتة مشتولة تنمو نموًا قويًا في غير بيئتها، تلفت الأنظار، لكنها لا تأتلف ولا تندمج مع النباتات المحيطة، بينها وبين النبات صفات ظاهرية تشي أن جذورها الأصلية كانت هنا، انقرض نوع البذور الذي كان ينتج تلك الجذور الأصلية أو كاد، تم استبدالها بأنواع مستحدثة خفيفة، تنشر اخضرارها الكاسح بقوة وسرعة، وسرعان ما تهيج فتصير حطامًا، دورات قصيرة مربحة، غير أصيلة ولا مستدامة، لكنها سائدة سيادة مطلقة، في عصر يُستبدل فيه الدولار الأمريكي الواحد بسبعين جنيهًا مصريًا في السوق الموازية للأوراق النقدية، لم يعد ثَمة التفات للعراقة أو النفع الطويل الذي يمكث في الأرض!

لعلّه نوع من العزلة الاختيارية، أو عدم قدرة على الاندماج التام والتكيّف، آثار غربة طويلة امتدت أقل قليلًا من عشرين عامًا، ولادة ونشأة الأبناء تمّت في بيئة مختلفة، نُخبوية الفكر والثقافة والسلوك تصنع حواجز تُعيق التآلف!

كلها احتمالات سببية لكن الواقع ينبئ عن اغتراب مجتمعي لا شك فيه، في وضع اجتماعي مثل هذا تصبح فرص العمل صعبة، وفرص الارتباط والزواج أكثر تعقيدًا وصعوبة.

تسيطر الهواجس على "هدى" بخصوص مسألة زواج البنتين، تؤمن بالقدر والقسمة والنصيب حد اليقين، لكن حالة شبه الحصار الاجتماعي المضروبة حول الأسرة تُقلق بالها، تخرّجت "زيزي" في كلّية الإعلام جامعة القاهرة بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف، لكنها حتى عندما تتاح لها فرصة للعمل ففي الصحافة الإلكترونية

بنظام "الأون لاين" من المنزل، لا تكاد تغادر البيت إلا نادرًا، وتُحضّر "روان" رسالة الماجستير ممّا يجعلها مثقلة بواجباتها البحثية.

تسألها أُمها في إشفاق:

- متى وكيف ستتزوّج بناتك يا "هدى"؟
- كل شيء له أوان يا ماما.
- يجري العمر يا ابنتي ولا توجد إشارة أو بادرة عن اهتمام أحد بهما.
- الزواج رزق وقسمة ونصيب لا حيلة فيه ولا تحايل عليه فاطمئني.
- أنتم أسرة منغلقة على أنفسكم يا بنيتي، لا تختلطون بأحد، ولا يتعامل معكم أحد، فكيف يتعرّف بكم الناس؟
- بالعكس يا أمي أنا شخصيًا أحب التواصل مع الناس، الحقيقة أن أعباء الحياة صارت قاسية جدًا على الجميع، جميع الصديقات القديمات مشغولات بأحوال الحياة، منهمكات في هموم الأبناء والأسرة. لا تزاور إلّا في الملمات، التواصل أغلبه يتم على مواقع التواصل الاجتماعي، الجميع صاروا غرباء في مجتمعنا، ونحن أكثر اغترابًا بسبب طول انقطاعنا عن المجتمع.
- صحيح يا ابنتي، الجميع صاروا غرباء في مجتمع غريب ومكتئب. لكن بناتك يا "هدى" منغلقين على أنفسهم، خروجهم من البيت نادر، صديقاتهن معدودات، لا يختلطن حتى بفتيات العائلة.
- على يدك يا ماما كم مرّة دعوتِ حضرتك بنفسك فتيات العائلة لمناسبات عدّة، نقيمها خصّيصًا لنندمج في المجتمع ويعتذرون، أو لا يلبّون الدعوة دون اعتذار.

- الحق معك "هدى". لقد صارحت ابنة خالتك "نوال" مرة في هذا الأمر، فقالت: إن ثقافة بنات "هدى" عالية جدًا لدرجة أن بناتنا تتحرّجن من التعامل معهما!
- رأيتِ يا أُمي أن ما تسمّينه حضرتك انغلاقًا، هو انغلاق مفروض علينا، ولا نصنعه نحن بأنفسنا؟
- صحيح. لكن لا يصح الاستسلام له..لا بد من مقاومته. اخرجوا من المنزل كثيرًا. اشتركوا في النادي. انفتحوا أنتم أكثر على الناس.
- رغم الظروف والأعباء سنحاول كثيرًا. أهم شيء دعواتك يا ست الكل.

تكرّر مثل هذا الحديث مرات عدّة بتنويعات مختلفة، توزيعات كثيرة لأغنية واحدة، صارت أغنية الجدة المفضّلة أو التي تلح عليها فلا تكاد تتذكّر من الأغنيات غيرها.

بعد عصر أحد أيام الصيف، أقبلت "زيزي" على أُمها تمشي في حياء شديد وتردّد تُقدّم قدمًا ثم تتعثّر فتؤخّر أخرى، تُراجع –ربما– ما دبجته في عقلها من مقال مختصر، تلمحها الأُم وتخفي نصف ابتسامة حتى لا تزيد توتّرها، فهيئتها تشي بما ستفاتحها بشأنه، تقول "هدى" في نفسها: "اللهم اجعله خيرًا إن شاء الله".

تفتح "زيزي" حديثها متلعثمة:

- أريد يا ماما أن أتكلّم مع حضرتك في موضوع خاص على انفراد.

تنظر "هدى" إليها مليًا، وتقول:

- حاضر.

تنهض متّجهة إلى غرفتها تتبعها "زيزي" تغلق خلفها الباب، وتقف أمام "هدى" التي جلست على السرير في استرخاء، طال صمت "زيزي"، تريد من أُمها أن تسحب منها الحديث سحبًا، تحب "هدى" هذه اللعبة، في استطاعتها أن تظل هكذا طويلًا، لكنها في النهاية تشفق على ابنتها، تستحثها:

- خير؟
- شاب يريد أن يتقدم لخطبتي؟
- ....
- مهندس من أسيوط اسمه "ياسين"، حديث التخرج.
- !!!
- أُمه طلبت صداقتي على الفيس بوك وأرسلت لي رسالة بهذا الأمر.
- من أسيوط يا "زينب"؟
- نعم يا ماما من أسيوط.
- أسيوط. سبحان الله العلي العظيم!
- بُعد مدينته عن مدينتنا يعوق المشروع؟
- فقط أتعجّب وأُسبّح ربي.
- تمام
- من أصدقائك على الفيس يا "زينب"؟
- لا يا ماما. أُمه فقط هي التي طلبت صداقتي منذ وقت قصير.
- رأيتِه يا "زينب"؟

زادت وجنتا الفتاة احمرارًا، ونكّست رأسها أكثر:

- مرة واحدة كانت في الجامعة.

ابتسمت الأم ابتسامة عريضة، جفلت لها "زيزي" حتى كادت تقفز فارة من أمامها، لكنها تمالكت نفسها، وعقّبت:

- والله يا ماما هذا ما حدث فعلًا.

كرّرت "هدى" وما زالت ابتسامتها تتسع:

- مرة واحدة كانت في الجامعة! لم أطلب منك أن تقسمي.
- رأيت حضرتك تبتسمين كأن حضرتك لا تصدقين.
- وهل أنت تكذبين قط يا "زينب"؟
- الحمد لله لا أكذب ولا أحب الكذب.

ضحكت "هدى" وقالت بعفوية:

- لا تكذبين أبدًا. لكنك تُخفين بعض الأمور جيدًا.

احتجّت "زينب" قائلة:

- لم أخفِ شيئًا يا ماما.
- لا عليك. ليس هذا هو موضوعنا. ستعيشين معه في أسيوط؟
- هو يعمل في شركة كبيرة بالقاهرة ويقيم بجوار عمله.
- وماذا تريد والدته تحديدًا؟
- تستأذن وتستطلع الأمر، فإن وجدت ترحيبًا بالفكرة من حيث المبدأ سيزوركم هو ويناقش معكم التفاصيل.
- الأمر لك فانظري ماذا تريدين.
- هذا هو الموضوع يا ماما فانظري فيه وأعطيني ردًا أجيب به على أُم "ياسين".

سكتت "هدى" أطول من المعتاد، حلوة مباراة تنس الطاولة، وهي وابنتها تتبادلان الكرات دون حسم، سألت:

- أنت صاحبة القرار. نعطيه فرصة؟

أومأت "زيزي" بالإيجاب، ضحكت "هدى" وقالت:

- أبلغي والدته أن يشرّفنا بالزيارة. ممكن يقابل أخوالك....

استدركت "زيزي" بسرعة:

- في الحقيقة يا أُمي يريدون أن يكون الأمر سرًا بيننا، يقابل حضرتك، ممكن أخي "أحمد" يكون مع حضرتك في المقابلة، فقط، فإن حدث قبول مبدئي فلا مانع من توسيع المقابلة التالية.
- تمام. لا مانع.

أقبلت "زيزي" على أُمها وهي تهتف:

- شكرًا ماما.

ثم طبعت فوق رأس "هدى" قبلة، وأخذت كفّها فقبّلته. ربتت هدى على كتفها واحتضنتها.

****

جاء "ياسين" للزيارة، وهو مهندس شاب متفوّق حديث التخرج، صعيدي أسمر البشرة داكنها، نحيف بلا مبالغة، طويل ليس أكثر من اللازم، يعمل في إحدى الشركات العالمية متعدّدة جنسيات مالكيها، فرع مصر، منذ عام واحد تقريبًا، إمكاناته

المتوفّرة أخلاقه ومؤهله العلمي وطموحه وثقته في مستقبله، سُئل عن سر عجلته في طلب الزواج، هو لم يتخطَ عامه الرابع والعشرين بعد؟ أجاب:

- الزواج يحفظ الشباب، يساعدهم على الاستقرار والرزانة والاتزان. الشباب قبل الزواج عمر ضائع بلا جدوى.

رأت "هدى" في "ياسين" صورة ابنها "أحمد" بعد عامين من الآن، نفس المؤهّل الجامعي، تخصّص قريب، مستوى الأخلاق والقيم، الطموح والأمل، تساءلت:

- ماذا تصنع إذا رغب "أحمد" في الارتباط بعد عامين؟ ستقول له أوجد فتاة تقدّر ظروفك ولا يُرهقك أهلها بطلبات مادية مبالغ فيها، ومُرهقة لكل شاب في مثل عُمرك.

ما تتمناه لابنها "أحمد" ستمنحه لياسين، هذا هو العدل في القيم، كان "عادل" –رحمه الله– كلّما توقّف عند قوله تعالى: **(وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ*الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ*وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ)**المطففين١–٣، يقول: "يخطئ من يظن أن التطفيف مقتصر على الوزن والمكيال فقط، وإنما التطفيف الأكبر يكون في ميدان القيم، والموازين الأخلاقية والمعنوية، أن تطلب من الناس حقوقًا لا تؤدّيها لهم". وترى "هدى" أن ما تطلبه لابنتها من زوجها هو عين ما ستعين ابنها على أدائه لعروسه.

سيتعيّن على "ياسين" أن يجيء مرّات تالية، مرّة للجلوس مع "زينب"، ليتناقشا سويًا حول المشترك والممكن بينهما، سيستأذن "ياسين" عقب الزيارة الأولى في زيارة تالية لزينب، إذ ظل للحديث بقية، وهذا هو أول لقاء يجمعهما معًا، بعد الرؤية العابرة التي كانت قبل سنوات!

لكن اليُسر الذي تسير به الأمور يشي بأن الأمر سيؤول إلى خير.

بين مدينتين

قال عم "مصطفى" _والد "ياسين"– في مجلس الرجال:

- في الزمن الماضي كان موظفو الحكومة يتنقّلون في وظائفهم في مختلف أنحاء مصر، فتجد موظفًا من أسيوط يتم تعيينه في الإسكندرية، ثم يُنقل إلى البحيرة، وبعد ذلك إلى القاهرة، وقد يرجع إلى الصعيد ولكن في سوهاج أو قنا.

قال المهندس "بهاء" _الخال الكبير للعروس–:

- بالتأكيد لم تعاصر هذه التنقلات يا عم "مصطفى"؟
- كان يحدث ذلك في جيل الآباء. أبي لم يكن موظفًا لكن عمي كان موظفًا وتنقّل في مختلف البلاد.

قال "بهاء":

- لي خالة تخرّجت في كلّية التربية جامعة الإسكندرية نحو عام ألف وتسعمائة ثلاثة وسبعين، عُيّنت مُعلمة في أسيوط.

تنحنح "إسلام" –خال "ياسين"_ وسأل:

- عندنا في أسيوط؟

أجاب "بهاء":

- كانت في ديروط على ما أتذكر.
- مركز ديروط؟

- أتذكّر أنها كانت تحكي لنا عن الظلام الذي يعمّ البلد بعد غروب الشمس، على ما أظن لم تكن الكهرباء قد دخلت هذا المكان، وكانت تسمع صوت الأعيرة النارية تنطلق طوال الليل، وكانت تقول: لا أحد يساوي عندهم أكثر من ثمن رصاصة بقرشين!

قال "إسلام":

- لعلها كانت في إحدى النجوع التابعة لمركز ديروط، أمّا مركز ديروط نفسه فليس هكذا.

سأل "بهاء":

- لا يوجد لديكم عادات الثأر في أسيوط؟

أجاب عم "مصطفى":

- صورة مشوّهة ومتجنّية ينقلها الإعلام عن الصعيد. توجد هذه الأشياء لكن في القرى والنجوع، أمّا أسيوط المدينة فهي مدينة متحضّرة تمامًا.
- سبحان الله!

أكمل عم "مصطفى":

- كنت أتحدّث عن تنقّلات الموظفين قبل عصر التلفزيون، وكان التجّار يتنقّلون بتجارتهم أيضًا بين الوجه القبلي والبحري، وكان الناس يعرفون مدن ومراكز مصر بالمشاهدة والمعاينة ومعاملة الناس، ولم تكن تنتشر هذه الصورة المغلوطة عن الصعيد في عيون البحراوية، ولا الصورة السيئة عن فساد أخلاق البحراوية المنتشرة في أذهان أبناء الصعيد، حتى دخل

التلفزيون كل بيت وقدّم صور مشوّهة عن أهل مصر في نجوع الصعيد وفي قرى الوجه البحري!

قال "محمود"–ابن عمّة "ياسين"– :

– قبل هذه الزيارة لم نكن نتصوّر مدينة دمنهور بهذا الجمال والهدوء وهذه النظافة!

سأل "بهاء":

– هل تجوّلتم في المدينة؟

أجاب "محمد"– الخال الأصغر لزينب–:

– اصطحبتهم يوم أمس في جولة في شارع عبد السلام الشاذلي، وشارع الجمهورية، وشارع الكورنيش.

أقر "بهاء":

– كلها شوارع رئيسية نظيفة ومعتنَى بها. لكنّها ليست كل دمنهور، فهناك أحياء شعبية لا تلقى هذا الاهتمام.
– كل مدن العالم بها أحياء شعبية تقبع خلف الشوارع الرئيسية التي تمثّل واجهة المدينة.

قال "ياسين":

– تمشّينا اليوم من الصاغة حتى فندق دمنهور السياحي. الشباب فضّلوا التجوّل في المدينة عن استقلال التاكسي، رأينا شوارع قديمة لكنها نظيفة وهادئة. لا يوجد زحام.

قال "بهاء":

- ربما لأن اليوم هو الجمعة وهو يوم عطلة للمصالح الحكومية والمحال التجارية، أمّا باقي أيام الأسبوع فتعاني منطقة وَسَط البلد من ازدحام شديد.

عقّب شقيقه "محمد":

- يحدث الزحام أوقات الذروة، أمّا من وقت بعد العصر فمدينة دمنهور بالفعل مدينة هادئة مقارنة ببقية المدن.

أمّن "محمود" على ملاحظة "محمد" قائلًا:

- حضرنا يوم الأمس في وقت الظهيرة وهو يوم عمل، لاحظنا أن الزحام أقل كثيرًا من عندنا بأسيوط.

قال عم "مصطفى":

- الإعلام والفن والأدب في مصر يركّزون على القاهرة والإسكندرية، وإن خرجوا خارج القاهرة والإسكندرية يتجّهون إلى نجوع الصعيد الجواني، أو القرى النائية في وجه بحري ليقدّموا لنا ثقافات تُعد هامشية في حياة المجتمع المصري، لكنّهم لا يقدّمون أبدًا الحياة في مدن مصر الرئيسية مثل بنها وطنطا ودمنهور والمنيا وأسيوط وسوهاج.

وقال "بهاء":

- نحن تقريبًا لا نعرف شيئًا عن البيئات المختلفة في أنحاء مصر إلّا بالرجوع إلى أفلام السينما ومسلسلات التلفزيون!

قال عم "مصطفى" بأسى:

- وهذه الأعمال تشوّه المجتمع المصري للأسف أكثر مما تقدّمه على حقيقته.

عقّب "إسلام":

- شُغل إعلام. كما يقولون لا يلفت انتباه في خبر يقول: عقر كلبٌ رجلًا، فهذا شائع يحدث كل يوم، ولكن كل الإثارة في خبر مثل: عقر رجلُ كلبًا!

وعمّ المجلس الضحك.

****

يصادف فرح "زيزي" مولد "سيدي جلال السيوطي"، في النصف الأول من سبتمبر في أسيوط، والشهير بين الناس بسيدي جلال، ويقع مسجده في حي غرب أسيوط في القيسارية، ميدان المجذوب، والقيسارية أحد أسواق أسيوط يبدأ بعد مبنى مستشفى أسيوط العام، ويمتد كسوق طويل ضيق يشبه سوق المنشية بمدينة الإسكندرية، تصطف محالّ الخردوات والأقمشة وملابس الأطفال، وبعض محالّ العطارة والبقوليات على جانبيه، ويفترشه الباعة وأغلبهم من النساء، ببضائع أغلبها من الفاكهة مثل البلح بأنواعه، والجوافة والرمّان والمانجو، والخضروات، والجبن القريش، والجبن القديم، وتظل القيسارية ممتدة حتى يتفرّع عنها سوق الخضار، وحلقة السمك ومحالّ اللحوم والدجاج، وتُسلمك القيسارية إلى مجموعة من الأحياء والحارات الشعبية، ويقولون عن القيسارية أنها أقدم سوق شعبي ما زال يحافظ على وجوده في مصر، بعد سوق خان الخليلي، وأن عمر القيسارية نحو أربعمائة وخمسين عاما، ويُطلق عليها أهل أسيوط: "سوق الغلابة"

ويُعد مولد "سيدي جلال" من المناسبات الدينية المهمّة في التراث الشعبي لمحافظة أسيوط، يقصده الآلاف من أبناء المحافظة، ويُحيي ليلته الختامية "محمود ياسين التهامي" ذو الشعبية الجارفة في صعيد مصر، بمدائحه وابتهالاته وأناشيده، حتى قرب مطلع الفجر.

والإمام "جلال الدين السيوطي" نفسه عالم من كبار علماء الأمة له باع طويل في العلم، في تفسير القرآن الكريم وكتب السُنّة والتاريخ وطبقاته، ومن أشهر كتبه: تفسير الجلالين، حيث استكمل فيه تفسير أستاذه جلال الدين المحلَّى، وكتاب تاريخ الخلفاء، وغيرها من الكتب، اعتقد الصوفية في كرامته، فأقاموا له ضريحًا ومسجدًا وجعلوا له مولدًا يقصدون إليه كل عام بالاحتفال يحيونه على مدار خمسة عشر يومًا!

وأسيوط مدينة جميلة في وَسط صعيد مصر، يتميّز كورنيش النيل فيها بالجمال والأشجار الباسقة المورقة، وأندية النقابات والهيئات التي يغلب على طراز بنائها طابع الفيلل والقصور العريقة، ويقوم الخزان الصغير على ترعة الإبراهيمية أمام نادي أسيوط الرياضي، كأحد معالم المدينة، ويختلف أهلها كل الاختلاف عن الصورة النمطية التي يصدّرها الإعلام عن الشخصية الصعيدية والبيئة الصعيدية التي تظهر في الروايات والسينما والتلفزيون.

ويشتد الزحام في المدينة خاصة في ميدان المحطة وما حولها حيث تنتشر البنوك، ومحالّ العلامات التجارية الكبرى (Brands).

ومن أغرب المقامات التي يمكن أن تشاهدها في أسيوط، مقام الشيخ "علي عبد الدايم"، أو ما يطلق عليه أهل أسيوط: "الشيخ علي"، يقع مقام الشيخ "علي عبد الدايم" على جسر السلطان عند تقاطعه مع شارع سعد زغلول، بالقرب من ميدان

الميدوب، والعجيب في أمر هذا المقام، أنه على خلاف المعروف عن كل المقامات الكثيرة المنتشرة في مصر، فكلها تقريبًا تعود لعصور قديمة، غبُرت منذ مئات السنين، بحيث تتناقل الأجيال قصص أصحاب هذه المقامات دون أن يكون أحد من معاصري أصحابها على قيد الحياة، إلا الشيخ "علي عبد الدايم" والذي كان يعمل مدرّسًا للفقه في معهد أسيوط الديني، وسأله أحد تلامذته عن معنى الزهد، وكرّر السؤال، فخلع الشيخ عمامته، وانصرف من المعهد فاعتزل الناس وعاش في خلوة على جسر السلطان، ويوجد الكثير من أهالي أسيوط في جيل الآباء والأجداد قد عاصروه، حيث توفّاه الله في عام ألف وتسعمائة وسبعين، أي قبل نحو خمسين عاما من الآن، فأقام له تلاميذه مقامًا، وسُمي أحد شوارع أسيوط في المنطقة القريبة من المقام باسمه، شارع الشيخ علي عبد الدايم!

****

في مجلس الرجال بمنزل عم "مصطفى" بميدان المجذوب، حيث أقيمت مأدبة عشاء على شرف زيارة أهل البحيرة من عائلة العروس زينب، أو بالأحرى عائلة أم العروس، حيث مقاطعة الأعمام والعمّة لأسرة "زينب" ما زالت مستمرّة!

دار أغلب الحديث عن الفرق بين البيئة الصعيدية في الواقع وبين المِخيال الذي يقدّمه الإعلام. وعن أعلام أسيوط والصعيد والبحيرة. تحدّثوا بفخر عن الشيخ "عمر مكرم" نقيب الأشراف، والشيخ "حسنين مخلوف" من كبار علماء الأزهر، والشيخ "سيد طنطاوي" شيخ الأزهر، و"أحمد كمال أبو المجد" وزير الإعلام في عهد الرئيس "السادات"، وعن "سيد قطب" و"موسى صبري" وشاعر النيل "حافظ إبراهيم"، وعن كابتن "طاهر أبو زيد" لاعب كرة القدم ووزير الرياضة الأسبق، كما تحدّثوا عن الإمام "محمد عبده" والدكتور "أحمد زويل"، و"عبد الوهاب المسيري"، و"عبد المعطي

المسيري"، والإذاعي "عمر بطيشة"، والأديب "توفيق الحكيم"، وأديب الدلتا "محمد عبد الحليم عبد الله"، والشيخ "محمد الغزالي"، والقارئ الشيخ "منصور الشامي الدمنهوري"، والأديب "يوسف القعيد" والشاعر "فاروق جويدة"، كما تناولوا بالذكر الكابتن "حسن شحاته"، و"أحمد ناجي"، و"محمد ناجي جدو". وقال عم "مصطفى" فجأة:

- الأسعار ستذهب بنا إلى أين؟

عقّب "محمود":

- عندما اشترى "ياسين" شبكة العروس، كان ذلك قبل أقل من عام، كان سعر جرام الذهب عيار واحد وعشرين يساوي ألف ومائة وعشرون جنيها. وصل سعر الجرام في شهر رمضان الماضي إلى ألفين وخمسمائة جنيه!

قال "بهاء":

- أظنه وصل لأكثر من ذلك. ربما وصل سعر الجرام إلى ألفين وسبعمائة جنيه!

احتدم النقاش، وانطلق صوت الزغاريد من الطابق الأعلى حيث اجتماع النساء، وانطلقت أغنية فغطّت على أي نقاش:

أيوة يا واد خدت الأمورة

أيوة يا واد وعرفت تنقي

تذكّرت إحداهن الأغنية التي تروق "ياسين" والشباب: فانطلقت:

أوه.. سطلانة.. سطلانة لانة.. سطلانة

سيدة الحب والإيمان

تُلح "زيزي" على "هدى" لتكمل لها قصة السيدة "زينب" بنت النبي.

تسألها الأُم متخابثة:

- أخبريني بالله عليك ألم تبحثي عنها وتقرئيها؟.

تحاول "زيزي إخفاء" ابتسامتها عبثًا، فتقول والحروف تعوم على شفتيها:

- أحب أن أسمع أيقونة الحب والإيمان من روايتك أنت يا ماما، فرواية حضرتك لها فيها روح لا توجد في الكتب والمواقع.

تسرح "هدى" بخيالها دقائق، ثم تقول:

- ليتك سمعتها من أبيك "عادل"، لم يزل طعم روايته لي غضًا طازجًا في أُذني. يرويها كأحد شهود الحدث. يروي وتغرورق عيناه بالدموع، ويتلوّن صوته ويتهدّج مع مَواطن الفراق، ومواضع العاطفة.

تطلق "زيزي" آهة حارة، وتقول:

- حتى أنتِ يا ماما ترويها كشاهدة عيْن على الأحداث.
- يجبر الله بخاطرك يا بنيتي!
- هيا يا ماما. كُلّي آذان مُصغية.

تصمت "هدى" لحظات ثم تبدأ في القص:

- بدأ "أبو العاص" بعد أن فك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أسره، طريق عودته مشغول البال يفكّر في أمر حبيبته الذي ملك كيانه كله. يردّد لنفسه وهو يضرب كفًّا بكف من عجب: (ما أعجب هذه الحياة! وما

أمّر الأسر). يتساءل في انزعاج: هل يأسرها؟ يأسر زينب؟ هل تشعر معه أنها أسيرة بين ربوع وطن لا يحبها وإنما يمسكها ضرارًا.

يهز رأسه طاردًا منه هذا التوصيف، لا يأسرها سوى الحب.

إنه لم يمسكها في بيته وموطنه ضرارًا، على العكس لقد راوده كُبراء قومه ليطلّقها ضرارًا بها فأبى لأنه يحبها، لا يستطيع الحياة دونها.

خايلته صورتها وهي تتهادى أمامه وبطنها يكبر رويدًا رويدًا، فهي تحمل له فيها أعذب أمانيه، فعن قريب يصبح أبًا. ما أجمل الحياة!

دهمه خاطر دكّ أسوار الفرح بقلبه، هل تحرمه من ابنه كما حرم أباها منها؟

ما لهذه الخواطر الشاردة تتساقط عليه كالسهام المسمومة؟

إنه لم يحرمها. حرمها الحب. مشاعر معقّدة محمومة تغلي.

لا شك في أن المشاعر في صورتها الأولية كنهر لم تلوّثه مخلفات المدنية. لقد وعد أباها وقُضي الأمر هل ينكث وعده؟ لم يفعل ولن يفعل.

ليته لم يخرج معهم، ليته لم يقع في الأسر. ليته ما أخطأته الرماح.

لقد عاد من أجلها. لكنّ الرجل المنصف بادله أسرًا بأسر. تحرّك قلبه ولم تنبس شفتاه: يأسرها الحب!

أتراه يخرج معها مهاجرًا فيحرّر نفسه من أسر الحرمان وسجن الوَجد؟

يخرج معها وفي أحشائها بضعة منه؟

هذا محال إنه رجل تجارة، فأين تذهب أمواله وتجارته؟

مصالحه متشابكة مع أهل وطنه جميعًا.

لن يدعهم يحدّثون عنه أنه خرج في إثر امرأة ولو كانت دُرّة القلب.

ينتفض. تثور عليه كبرياؤه، فالمسألة مسألة مبدأ، فما كان للرجال أن ينتقلوا من معسكر إلى معسكر لعرَض من أعراض الدنيا.
فليتعذّب، فليكتوي قلبه بنار الهجر، ويشوي كبده لهيب الحرمان، ما كان له أن يغادر إلا عن مبدأ وإيمان، لن يغادر.
سيحرّرها، إنها الحبيبة التي حرّرته وأرسلت في فدائه أثمن ما تملك. سيحرّرها ولو على حساب ذاته.
تمضي الخواطر تقود خطواته. تتدافع داخله كبرياء العربي ولوعة الحب ولهفة اللقاء ونار الفراق.

حينما التقاها لم يكن هناك مفر من إخبارها بنبأ رحيلها. لم تلتقِ العيون منذ التقيا ولا بعدها بأيام. أنكرت الخدود سريان دموع لا تجف.

لم يُطق لحظة الوداع، حمّل أخاه الأمانة: بلِّغها إلى زيد مولى محمد وأوصاه بها خيرًا.

وحينما تحرّكت خُطى الوداع في الطريق، لم تملك العيون دمعها لأنه أحبها.

نكبة جديدة تخلع قلبه، هؤلاء الأوغاد تحرّشوا بأخيه وبها فسقطت من على الراحلة فأجهضتها السقطة. آه يا زينب، يا حر قلبي عليك. ويا لهفي على الحلم الضائع. أما آن لأبي العاص أن يكون له ولد؟

أمّا الدموع فلم تجف منذ الوداع الحزين.

حيث تنكّب عمرو بن الربيع قوسه وحمل كنانته (جعبة السهام)، وجعل زينب في هودجها، وخرج بها من مكة جهارًا نهارًا على مرأى من قريش، فهاج القوم وماجوا، ولحقوا بهما حتى أدركوهما غير بعيد، روَّعوا زينب، وفزّعوها، عند ذلك هيَّأ عمرو

قوسه، ونبّل نبله، ونشر كنانته بين يده، وقال: واللهِ لا يدنو رجلٌ منها إلا وضعت سهمًا في نحره، وكان راميًا لا يُخطئ له سهمٌ، فأقبل عليه "أبو سفيان بن حرب"، وكان قد لحق بالقوم، وقال له: يا ابن أخي، كفَّ عنا نبلك حتى نكلّمك، فكفّ عنهم، فقال له: إنك لم تصب فيما صنعت، لأنك حملت "زينب" في هودجها جهارًا نهارًا على مرأى من قريش، وقد عرفت العربُ جميعها أمرَ نكبتها في بدر، وما أصابها على يد أبيها "محمد"، فإذا خرجت بابنته علانية كما فعلت، رمتنا القبائل بالجبن، ووصفتنا بالهوان والذل، فارجع بها، واستبقِها في بيت زوجها أيامًا، حتى إذا تحدّث الناس بأننا رددناها، فسُلَّها من بين أظهرنا سرًا، وألحقها بأبيها، فما لنا بحبسها عنه حاجة، لكن ليس على مشهد مِن الناس، فرضي "عمرو" بذلك، وأعاد "زينب" إلى مكّة، ثم ما لبث أن أخرجها منها ليلًا بعد أيام معدودات، وأسلمها إلى رُسل أبيها يدًا بيد، كما أوصاه أخوه، وفُرِّق بين زوج وزوجته بحكم الله عز وجل.

صمتت "هدى" وطال صمتها، تطلّعت إليها "زيزي" في شوق قالت تستحثها:

- أكملي يا ماما.

قالت الأُم:

- دعي البقية لحلقة قادمة.

دلفت "زيزي" إلى حضن أُمها وهزّتها بلهفة:

- بالله عليك أكملي، لم يذكر هذه القصة بتلك الطريقة الأدبية الرقيقة غيرك.

مسحت "هدى" دمعة تسلّلت رغمًا عنها وقالت:

- كدت أحفظها من رواية أبيك من كثرة ما ردّدها علي بهذا الأسلوب الرقيق.

تساءلت "زيزي" في دلال:

- يبدو أن اسمي لم يأتِ مصادفة وأنه كان وراءه قصة حب؟!

أجابت "هدى" بتأثر:

- لقد كان أبوك هائمًا بقصة السيدة "زينب"، ورقّة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم معها، وما ذكر قصة قلادة "خديجة" قط إلا وترقرقت الدموع في عينيه، ولما توافقنا على تسميتك "زينب"، قلنا: لعلها تعيد سيرة أيقونة الحب والإيمان.

قالت "زيزي" وما زالت تتدلّل على أمها:

- أذن أكملي أمي حتى أعلم ماذا أراد لي أبي رحمه الله أن أكون.

قالت "هدى" تكمل قصتها:

- هاجرت "زينب" رضي الله عنها فمكثت في مدينة رسول الله نحو أربع سنوات، وحولها صحابة رسول الله، فلم تتزوّج من أحد منهم، كأنها كانت تنتظر حبيبًا غائبًا واثقة من عودته يومًا، أو أنها كانت تشكو بثها وحزنها إلى الله وتعلم من رحمته ما لا يعلمون!

وكانت من إيمانها تقوم الليل بمسجد رسول الله، حتى أنها شدت حبلًا في المسجد تستند إليه، إذا أطالت القيام حتى يغلبها التعب والإجهاد، فلمّا سأل عنه النبي وعلم أنه لزينب، أمرها أن تقوم الليل ما استطاعت، فإن غلبها التعب استراحت.

وقبل صلح الحديبية في السنة السادسة من الهجرة، خرج "أبو العاص" على تجارة لقريش إلى الشام، وفي طريق عودة القافلة قابلتها سرية مسلمة، فطاردتها حتى أخذت التجارة، وأعياهم "أبو العاص" وفر منهم، لكنه سبقهم إلى مدينة رسول الله وفيها "زينب"، واستجار بها فأجارته المرأة الحُرة الأبية، وكان وصوله المدينة ليلًا، فلما طلع الفجر وأقيمت صلاة الفجر وقبل أن يكبّر رسول الله لصلاة الفجر، هتفت "زينب" من أخر صف في المسجد: لقد استجار بي "أبو العاص بن الربيع" وإني أجرته. فلما سلّم النبي صلى الله عليه وسلم من الصلاة قال أسمعتم ما سمعت؟ والذي نفسي بيده ما علمت به إلا حينما قالت "زينب" ما قالت، وإن المسلمين يجير بذمتهم أدناهم. فأقر إجارة "زينب"، ثم قال لها: أي بنية أكرمي مثوى ابن خالتك واعلمي أنه لا يحل لك. ثم طلب النبي صلى الله عليه وسلم رجال السرية وخيّرهم بين ما غنموه أو أن يردّوا على "أبي العاص" ماله، فردّوه عليه وقال عنه النبي: حدّثني فصدقني ووعدني فأوفى.

ورجع "أبو العاص" إلى مكة فأدّى إليهم أموالهم حتى برئت ذمته، ثم أسلم وقال لقريش: ما منعني من الإسلام وأنا عند رسول الله إلا أن أؤدّي إليكم أمانتكم. ثم هاجر إلى المدينة وتزوّج "زينب بنت محمد" سيدة الحب والإيمان بصداق جديد، ورزقه الله منها بأُمامة حفيدة سيدنا رسول الله.

كفكفت "هدى" دمعها، حتى "زيزي" غلبها التأثّر وقالت:

- لله در السيدة "زينب" أجهدت النساء بعدها، وشقّت عليهم وفاءً وإيمانًا وتضحية!

عمل الأقدار

تواصل "زيزي" اجتهادها الذي يصنع تفوّقها وتميّزها في دراستها الجامعية، فهي تدرس ما تحب، وربما تعمل في نفس الوقت في بعض الصحف الإلكترونية كمراجِعة مقالات ومسؤولة (ديسك)، في أثناء الفِرقة الدراسية الثالثة تنتدبها الكلّية ضمن فريق صحفي لتغطية حادثة شهيد الشهامة بالمنوفية "محمود البنا" وإجراء حوار صحفي مع أسرته لنشره في صحيفة "صوت الجامعة" التي تصدر عن كلّية الإعلام جامعة القاهرة كحلقة من حلقات مشروع التخرّج.

سافر فريق العمل إلى مركز "تلا" محافظة المنوفية، وبينهم "زينب"، وعاشوا مع أسرة الشاب الشهيد، وتساءلت "زينب" ماذا عساها تفعل وهي تغرق في نهر من دموع حزينة ساخنة؟ نهر من نار، مُهل يغلي في الأجواف والبطون، مُهل الدنيا –لا مُهل الجحيم في الآخرة– ماذا تصنع الصحافة لأسرة فقدت ابنًا مثل "محمود"؟ ما معنى أن تفقد أسرة الأمل والحلم والمستقبل وبراعمها التي تتفتّح بالحياة، لتصبح أسرة مبتورة الفرع، جذع ميّت بلا أوراق خضراء، مآله إلى موات؟

الحُزن يخيّم على مدينة "تلا"، يسربلها بلون الحداد وطعمه ورائحته، منذ تخطو الأقدام خطوتها الأولى على المدخل الحزين الذي تحمل جدرانه صور الشهيد الشاب "محمود البنا" وكتابات جدارية بخطوط ريفية عفوية ساذجة لكنها فتية (الإعدام لراجح)، حُكم أطلقه الشعب الذي لا يعرف سوى الحق والعدل بالفطرة، مركوز في ضميره الجمعي: "من قتل يُقتل ولو بعد حين".

فريق العمل الصحفي شاهد على انهيار الأُم، وعمق حزن الأب الذي يحاول التماسك على الرغم من تلظّي كبده، وحديث يقطع نياط القلوب للجد والجدة، ورؤيا تبشّر ذوي الشهيد بقصر له في الجنة، ترويها امرأة من محافظة بعيدة رأت "محمود

البنا" في المنام أمام باب قصر شاهق، فأصرّت على أبنائها أن يذهبوا بها إلى أسرة الشهيد بـ"تلا"، لتقدّم العزاء والبشرى لأسرته بنفسها!

في قطار العودة من "تلا" إلى "القاهرة"، خط "منوف"، سيطر الوجوم على "زينب"، إن جرعة الحزن التي تجرّعتها اليوم كانت أكبر من قدرتها على الاستيعاب، لم تعطِ ردّة فعل، لم تبكِ، لكنها ظلّت في وجومها كأنّها ملفوفة به، كأنه يعزلها عن العالم من حولها، ترى الواقع من خلال نافذة مغبّشة، تتساءل بعمق: ما هي رسالة الصحافة؟ هل رسالتها أن تلاحق الخبر وأن تعتلي الرائج والشائع (تركب التريند)، وأن تسبق الجميع بسبق يضمن التمويل الإعلاني المتدفّق والمستمر، بغض الطرف عن مضمون الخبر أو قيمته؟!

أم رسالة الصحافة أن تنشر وعيًا، وترصد واقعًا، وتحذّر من خطر، وتمنع جريمة، وتكشف الظواهر الاجتماعية والسلوكية الخاطئة، وترفع ثقافة المجتمع في كل المجالات والاتجاهات، وتنقل الحقيقة أينما كانت، دون أن تتحوّل إلى بوق لمن يملك مالًا أو سلطة، ولا طبلة في أيدي المنتفعين منهم وحملة المباخر؟!

تفضّل "زينب" أن تكتب في الصحافة الإلكترونية التي تعمل بها في القسم الرياضي، فهي تحب النشاط الرياضي وتتابع المحلي منه والإقليمي والعالمي، والأهم بالنسبة إليها، أنها في مجال الرياضة تستطيع أن تقول الحقيقة كما تراها، وليس كما يُراد لها أن تراها، تستطيع أن تكتب بحرّية لا يمكنها الحياة دونها، فهي حرّة حتى من التعصّبات والانحيازات الضيقة التي تفرضها على غيرها اعتبارات كثيرة، الحرّية بالنسبة لها براح يسع العالم، فهي ترى الجمال والتفوق حيث كان في غير اضطرار لتزييف إنجازات، أو تبرير إخفاقات!

****

في العام التالي كلّفتها مجلة صوت الجامعة بتغطية إنجاز "عباقرة أسيوط" طلّاب كلّية هندسة جامعة أسيوط أبطال العالم في مسابقة "كاسحات الألغام"، التكليف هذه المرة كان فرديًا، وحدها من ستغطّي الإنجاز وتُجري الحِوار، استعانت بزميلة تقوم معها بهذه الرحلة الشاقة لتصوير الحِوار الصحفي بكاميرتها المتخصّصة.

هاتفت "زيزي" أُمها تستأذنها في السفر إلى أسيوط، تساءلت "هدى" في صدمة:

- أسيوط؟!

رغم سفر "هدى" خارج مصر، وإقامتها الطويلة في مكّة المكرمة، فإنها لم تسافر داخل مصر ولا مرّة واحدة إلى الصعيد! و"زينب" المولودة خارج مصر لم يسبق لها أن سافرت داخل مصر إلى أبعد من "القاهرة"، التي تعدّها منذ التحقت بجامعتها ومدينتها الجامعية، مدينة إقامتها الحقيقية، بينما "دمنهور" فهي منتجع الاستجمام والراحة بالنسبة لها!

طال صمت "هدى" المصدومة والمتوجّسة خيفة على ابنتها الحبيبة، تفكّر في مشاق هذه الرحلة، قطع صوت صمتها الحائر المتردّد، صوت "زينب":

- الرحلة ضرورية يا ماما، فهي تكليف بخصوص مشروع التخرّج، ولا يمكنني الاعتذار عنها.
- ما هي مدة الرحلة يا "زيزي"
- يوم واحد يا ماما.
- وكم يستغرق الذهاب إلى أسيوط من القاهرة؟

- تقريبًا خمس ساعات في القطار الديزل الفاخر الذي لا يتوقّف بين المحافظات بعد الجيزة إلّا في أسيوط.
- تذهبين وتعودين في نفس اليوم؟ تستقلّين القطار نحو إحدى عشرة ساعة أو أكثر؟!
- أنا مضطرة يا أمي، ماذا أفعل؟
- بالتوفيق يا ابنتي. لا أملك أن أمنعك عن عملك ودراستك، لو كانت الظروف تسمح لاصطحبتك في هذه الرحلة الطويلة الشاقة.
- اطمئني يا ماما ستكون معي صديقتي "دينا" ستجيء معي لتصوير اللقاء الصحفي.

في جامعة أسيوط تتبدّد كل الأوهام التي سكنت خيال الفتاتين عن أسيوط وعن أهل الصعيد، تجوّلتا في شوارع أسيوط القريبة وفي أروقة الجامعة، كما تتجوّلان في شوارع القاهرة، وفي أروقة جامعتها، أسيوط إذن امتداد طبيعي للقاهرة، مدن مصر كلها على هذا النحو تقريبًا، الزحام ومركزية الإدارة الحكومية والأضواء الساطعة لوسائل الإعلام المختلفة هي ما يميّز القاهرة عن غيرها من الأقاليم، أمّا معدن الشخصية المصرية فهي هي في كل شبر من أرض مصر!

تستعد "زينب" لإجراء حوار راقي مع فريق العباقرة، قائد فريق العباقرة مهندس "ياسين" الطالب في الفِرقة النهائية بكلّية الهندسة قسم كهرباء شعبة اتصالات، يبدأ التعريف بأعضاء الفريق، ويشرح فكرة المسابقة العالمية بمستوييها المحلي بين جامعات مصر، والعالمي الذي أقيمت منافساته في إقليم "ماكاو" الصيني، بين جامعات العالم، يُسهب "ياسين" في الحديث عن ليالي المسابقة، كما يحب أن يطلق

عليها، وعن الصعوبات والمعوّقات الكثيرة التي كانت كفيلة بوأد الحلم في منبته، لكن إصرار العباقرة وحنكة القيادة التي لم يأتِ على ذكرها "ياسين"، واستشفتها "زينب" من خلال الحديث، والدعم الذي قدّمته إدارة الكلّية، ساعدت الشباب في تحويل الحلم إلى حقيقة واقعة، تواصل عملهم بالليل والنهار على المشروع، واستطاعوا فعلًا أن يصنعوا "الريبوت" الذي يكشف الألغام ويُبطل عملها ويكسحها. لتأتي أصعب لحظة مرّت على "ياسين" وعلى فريق العمل على الإطلاق، وهي لحظة تصفية الفريق، لقد عمل فريق مكوّن من تسعة طلاب معًا على هذا المشروع مدة عام، وخاض المسابقة المحلية في القاهرة، وأحرز أحد المراكز الثلاثة الأولى التي تؤهّل لخوض المسابقة المحلية وفاز بإحدى مراكزها الأولى، ثم وافقت الجامعة على سفر خمسة أفراد فقط من أعضاء الفريق إلى الصين نظرًا لارتفاع التكلفة المالية للسفر، وجاءت لحظة الحسم، كيف سيختار "ياسين" أعضاء الفريق الذين لن يحالفهم الحظ في السفر؟ يتحدّث "ياسين" بتأثّر شديد عن هذه اللحظة:

- كان أصعب قرار مر بي في حياتي. وأصعب لحظة في ليالي المسابقة. لكنّ العباقرة كانوا مثالًا للتضحية والإيثار. لم يعترض منهم أحد على قرار استبعاده من السفر، وتمنّى المستبعَدون لإخوانهم المسافرين النجاح والفوز. كان الأمر في غاية الصعوبة لكنّ توفيق الله كان حاضرًا، وفزنا بالمركز الأول على مستوى العالم!

أقل من ساعتين كانت المدّة التي قضتها "زينب" مع فريق "العباقرة" داخل أروقة كلّية الهندسة بجامعة أسيوط، هذه الفتاة النحيلة السمراء التي ترتدي نظّارات طبية على عينيها، وطرحة طويلة داكنة اللون، وقميصا (بلوزة) منقوشا بنقوش صغيرة هادئة، وتنّورة واسعة فاتحة اللون قليلًا. الفتاة العملية جدًا في مهنتها، اللبقة التي لا تتحدّث خارج موضوع الحِوار الصحفي، مهما كانت الأسباب، الحيّية

المهذّبة، التي لا تطيل النظر في وجوه شباب الفريق، ماذا رأى فيها مهندس "ياسين" ليصبح الارتباط بها حلمًا ظل يراوده لمدة عامين كاملين، دون أن يتواصل معها ولو مرّة واحدة؟!

ماذا رأى فيها لتصبح "زينب" دعوة كل صلاة منذ هذا اللقاء الصحفي العابر؟!

في القصص والروايات التي تتناول الحب، يتحدّثون عن الحب من أول نظرة، وهو تعبير شائع جدًا بغض النظر عن مدى موثوقيته كحقيقة واقعة، لكن حتى هذا النوع من الحب الذي يبدأ بنظرة أولى لا يمكن له أن ينمو ويتأصّل ويستمر، إلّا بتبادل ودوام التواصل والاتصال، من مهاتفة ورسائل ولقاءات كثيرة متعدّدة، قبل أن يتحوّل الحب من لمحة تثمين وإعجاب، إلى كائن حي كبير يسكن القلب والروح والوجدان. والحب عمومًا لا يمكن أن يتحقّق بلا معرفة حقيقية دقيقة وفاحصة لشخصية المحبوب وبيئته وظروفه، فكلّها مصابيح تضيء الطريق إلى استكمال مسيرة العاطفة، أو الوقوف بها عند لحظة الانبهار. فالحب لا يمكنه أن ينبت إلّا في بيئة صالحة لنموه، وتربة خصبة مناسبة لبقائه وتجذّره.

هناك نظرية أخرى تعتمد على لقاء الأرواح في عالم آخر –ربما– مبنية على حديث نبوي شريف "الأرواح جنود مجنّدة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف"، يقولون إن امرأة بمكّة المكرّمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تُضحك الناس، فلما هاجرت نزلت على امرأة في المدينة تُضحِك الناس!

تظل إجابة الأسئلة الحائرة، والفلسفات غير اليقينية، تبحث عن تفسير لدى "ياسين" وحده، هو الذي يدرك السر، إن كان قد أدركه، ما لم يكن مسيّرًا بغير إرادة ذاتية منه!

لعلّه يحتفظ بالإجابات لنفسه، أو لعلّه لن يُطلع عليها أحدًا إلّا "زيزي" عندما تنتقل إلى عشهما معًا! أمّا نحن فلا يسعنا إلّا الدهشة والتخمين!

****

تنتمي "هدى" في تفسير فلسفة الحب إلى مدرسة تلاقي الأرواح، عندما جاءها "ياسين" ليخطب "زينب" رأت فيه صورة زوجها "عادل"، ذات الطموح، نفس الثقة في الذات، رصيد التوكّل على الله، الأمل في غد تشرق عليه شمس الرضى، روح مغامر حنّكته قيادة فريق "العباقرة".

قصة حب توشك أن تشق التربة عن ريشة خضراء لتتنفس الهواء وترى الضوء لأول مرة. بريئة ناعمة حالمة وواعدة!

من يمكنه أن يوقف هذه النبتة الغضّة؟ من يستطيع أن يدهسها تحت عجلات ثقيلة ضخمة للمادية الطاحنة؟ من يطاوعه قلبه أن يضع العقبات والعراقيل أمام هذا الجمال والبهاء المنتظر، أمن أجل الرقم الذي سيوضع مقابل الشبكة الذهبية للعروس، أو محتويات (النيش)؟

- مرحبا بك يا "ياسين" نحن نشتري ابنًا، أخًا لأحمد و"ماجد"!

فرحة الأسرة بهذه العلاقة الوليدة بدت كبيرة، وتقدّم "بهاء" بهديّة سخيّة من الذهب الخالص لابنة شقيقته، أتت كأنها تعويضًا عن الميراث الذي أكله الأعمام، ومباركة منه بأول فرحة في أسرة شقيقته، وفي العائلة.

****

"زيزي" وهي تهبط درج منزل بيت جدتها مغادرة شقّة أسرتها الكائنة في الطابق الخامس، مسافرة مع أسرتها الحبيبة إلى أسيوط، التي ستزورها للمرة الثانية في حياتها، زارتها مرة طالبة في السنة النهائية بكلّية الإعلام، وستزورها الآن حيث الفرح الكبير، تفكّر كيف ستقيم قيمها، وتُحيي مبادئها التي قرّرت إقامتها وإحيائها؟ منذ لحظة الفرح الذي يجب أن يكون منسجمًا مع تلك المبادئ الراقية.

- سيبدأ يوم الفرح عند الظهر تقريبًا بموعد مع مصفّفة الشعر (الكوافيرة)

هذا ما بدأت به "أم ياسين" حديثها مع "زينب" و"روان"، تؤيّدها "شيماء" شقيقة "ياسين"، بعد الانتهاء من فرش شقّة الزوجية قبل أيام من موعد العُرس، دُهشت "روان"، وامتعضت "زينب"، تساءلت:

- لماذا مصفّفة الشعر؟ أنا لا أذهب لمصفّفة الشعر.
- لا بد من ذلك هذا يوم فرحك، وهذه يسمّونها ليلة العمر. وهي في الحقيقة ليلة واحدة في عمر كل فتاة، لا تتكرّر، ولا يمكن إغفالها أو تركها تمر مرور الكرام.
- نعم سيكون يوم فرحي وسنفرح إن شاء الله لكن دون الحاجة إلى مصفّفة شعر.

قالت "أم ياسين" مشدوهة:

- لتضعي بعض مساحيق التجميل الخفيفة على وجهك الجميل، تُخفين علامات الإرهاق والتوتّر التي رسمتها أسابيع الاستعداد للزفاف على ملامحك الرقيقة هذه.

- شكرًا لاهتمام حضرتك يا ماما. لكنّني لن أضع أي مساحيق تجميل، لم يحدث ولن يحدث أن أظهر أمام الناس متجمّلة بمساحيق تجميل، ولا مبرزة خُصلة من خصلات شعري.
- هذه كما قلت لك ليلة العمر، وهي ليلة فرح وفي الفرح يُسمح بما لا يُسمح به في غيره من الأيام والمناسبات، فلكل مقام مقال.
- أنا لا أحب ذلك ولا أريده، و"ياسين" لا يحب ذلك ولا يرضاه ولا يسمح به، ولو حدث ذلك رغمًا عنّا لأي سبب – وهو بالمناسبة لن يحدث– فإنه سيجعلنا نشعر بالعجز عن الدفاع عن حريتنا، والاستسلام لواقع لا نحبه ولا نرضاه. هذا سيحزننا، سيحزننا بشدة. ربما سيفرح كل الناس حولنا، ربما سيشعرون بالزهو والانتصار لأنهم أرغمونا على ما يحبون ولا نحب، لكننا بالتأكيد لن نفرح. اليوم الذي يكسرنا ولا يمكننا أن نفرح فيه لا يكون أبدًا يوم فرحنا. فاسمحوا لنا أن نفرح بطريقتنا البسيطة الهادئة.

هتفت "شيماء" مدهوشة:

- كيف ستفرحون إذن؟!
- أن أكون أنا و"ياسين" على سجيّتنا. هذا هو الفرح الحقيقي بالنسبة لنا.

تصعّبت "أم ياسين" وغمغمت:

- في حياتي كلها لم أرَ عروسًا لا تضع المساحيق على وجهها يوم الفرح، ولا تقوم بعمل تسريحة مميزة لشعرها. خاصة وأن مصفّفة الشعر امرأة، وأن مركز التجميل لا يعمل به إلا فتيات فقط!
- صحيح قد يبدو هذا أمرًا غريبًا أو شاذًا. لكنّه يحقّق راحتي وراحة "ياسين"، وبالتأكيد حضرتك تهتمين براحتنا أكثر من أي شيء آخر.

مصمصت الأم شفتيها، وقالت بعد لحظة تأمّل:

- إذن سيتعيّن عليك الذهاب إلى مركز التجميل ذاته لتقوم إحدى الفتيات بلف طرحة العُرس. وهذا أمر لا بد منه، فلف الطرحة يحتاج إلى تخصص حتى تكون في أبهى صورة إن شاء الله.

سلّمت "زينب" قائلة:

- الأمر لله. بالنسبة للف الطرحة فلا مانع. لكن أرجوكم بلا ضغوط أو مفاجآت، قد تفسد علينا خصوصية احتفالنا بعُرسنا!

قالت "شيماء":

- لن يضطركم أحد إلى شيء لا ترغبون فيه، نحن نتناقش والأفضل هو ما سيتم الالتزام به في نهاية الأمر.

قالت "روان" تساند شقيقتها وتنتزع تأكيد على وعد "أم ياسين":

- إذن سنكون بعد الظهر إن شاء الله عند مركز التجميل للف الطرحة دون إجبار "زيزي" على ما لا تحب؟

أذعنت "أُم ياسين" على مضض:

- كما تحب إن شاء الله، فليس لنا إلا سعادتها وسعادة "ياسين"، والذي يرضيهما يرضيني.

تساءلت "زينب":

- لكن بعد الظهر هذا موعد مبكر جدًا عن وقت الذهاب إلى قاعة الفرح مساءً؟!

أجابت الأُم:

- تعرفون أن مراكز التجميل تكون مزدحمة جدًا، خاصة في هذا التوقيت من كل عام، ولذلك فربما استغرق الأمر بعض الوقت، ثم هناك فتيات العائلة، بنات العمّات وبنات الخالات، كلهن سيرافقن العروس، وسيتزيّن بهذه المناسبة السعيدة، فياسين أول فرحتنا وهو الولد الوحيد كما تعلمون.

هتفت "روان":

- ربنا يبقيه ويحفظه من كل سوء.
- اللهم آمين. ثم ستقضون فترة ما بعد العصر في حديقة التصوير، حجزنا مكان رائع على النيل. التصوير عادة في مثل هذه المناسبات يستغرق حوالي ساعتين. وجمال الخلفيات يظهر أكثر في ضوء النهار، لذلك يجب أن يتم التقاط بعض الصور والمناظر قبل الغروب، ثم يأتي دور اللعب بالإضاءة والألوان التي يتقنها فريق العمل بالمكان، حينما يحل الظلام. ولذا أفضل وضع لالتقاط الصور التذكارية هو الوضع الذي يجمع بين مدة تصوير نهارية وأخرى ليلية.

لم تبدِ "زينب" ولا "روان" رأيًا بخصوص الترتيب المحكم لموضوع التصوير، فهو أمر شائع معتاد في أفراح الأتراب، وما دامت العروس ستكون بمظهرها التي تحب أن تكون فيه، فلا مانع من تأدية الطقوس على وجهها.

كانت التفصيلات الأكثر إثارة لقلق "زينب" وتوتّرها، تتعلّق بمظاهر الاحتفال داخل قاعة الفرح، وهي تفصيلات فضّلت أن تناقشها مع "ياسين" دون تدخّل أحد من الأهل، قالت:

- لا يسعني أن أفرض على العائلة أن يكون الاحتفال داخل القاعة مشابهًا لاحتفالنا يوم عقد الزواج بالموشّحات والمدائح والألحان شديدة الهدوء. لكنّني أرجو من كل قلبي أن يمتنعوا عن إذاعة أغاني المهرجانات الشعبية –فهذه لا أطيقها– وهي تصيبني بالتوتّر والغثيان –حرفيًا– وألّا يضطروننا إلى الرقص في القاعة، لأنّني لن أفعل ذلك تحت أي ظرف من الظروف.

ابتسم "ياسين":

- وأنا أوافقك الرأي تمامًا. لقد كنت سعيدًا جدًا بفقرات الاحتفال بعقد الزواج. لكن الحال هنا مختلف قليلًا. لا شك في أن من حق العائلة أن تفرح، وهم لن يفرحوا إلا بما اعتادوا عليه، ولكنني اتفقت معهم على أنني أنا المسؤول عن اختيار أغنيات الإذاعة الداخلية داخل القاعة، ولن يكون بينها مهرجانات شعبية بطبيعة الحال، ولن يجبرنا أحد على الرقص في القاعة، فلا تتوتّري وسَرّي عنك.

ابتسمت "زيزي" في توتّر، حاول "ياسين" إخراجها منه فطلب منها مناقشة تفاصيل لحظة دخولهما القاعة، فهذه لحظة فارقة، وأهم فقرة من فقرات حفل الفرح من وجهة نظر "ياسين"، وافقته "زيزي" الرأي وأخذا يرسمان معًا (اسكريبت) مشهد دخول القاعة.

****

أخذ "ياسين" يشرح وجهة نظره، عندما عاتبته والدته في حضور والده، على تشدّد عروسه بخصوص طقوس العُرس، قال:

- تحرص قاعات الأفراح على تقديم فقرات ثابتة (إكليشهات) لا تتغيّر أبدًا، فهي كل يوم تعيد تقديم نفس الفقرات بحذافيرها وكامل تفاصيلها، الذي يتغيّر فقط هو أشخاص العروسين، وبعض المدعوين، كأنّهم ممثّلون هواة على خشبة مسرح يعيد تقديم نفس المسرحية بكل دقائقها كل مساء! لا تعبّر المسرحية إلا عن رؤية كاتبها ومخرجها، لا روح فيها للمؤدّين على خشبة المسرح، ولا خصوصية لشخصياتهم الحقيقية، ولا إبداع نابع منهم، عرائس شمع تتحرّك بأصابع مُخرج العمل الهزلي. تكرار وإعادة تجعل من يحضر عدّة أفراح متعاقبة، لا يكاد يميّز بين عروس يوم أمس وعروس اليوم، نفس الحركات وذات الرقصات، الموسيقى التصويرية هي هي، أغاني المهرجانات التي تصلح كلماتها - إن حرص مستمع على تبيّن كلماتها- لساحة معركة بين مجموعة من الفتوّات أو البلطجية، كلها انتصارات خرافية تتم بالعضلات والخناجر! وشكوى من غدر الأصحاب وخيانة الأحباب ونكران المعروف وكُفران الجميل! تتكرّر كل مساء بذات الترتيب الممل. تلعب مساحيق الزينة دورها في تقديم تماثل شبه تام لكل العرائس. صورة نمطية معادة ومكرّرة لا روح فيها ولا حياة ولا تجديد أو إبداع!

يستمع الأبوان في وجوم إلى رؤية "ياسين"، لم يكونا يعترضان، فهما حريصان على فهم وجهة نظره والتوافق عليها لإرضاء كافة الأذواق، سأل "ياسين" والده- وهو يعرف تذوقه للمسرح-:

- بماذا تشعر عندما تشاهد مسرحية في ليلة وربما تعجبك، وفي اليوم التالي يدعونك إلى مسرحية أخرى، وتقرأ أسماء ممثلين آخرين للعرض المسرحي، وتذهب وكُلّك شوق أن تضيف إلى رصيدك عملًا فنيًا جديدًا

وقصّة مختلفة وإبداع متجدّد، فتفاجئ بعرض مسرحية يوم أمس بنفس (الإفيهات) يقدّمه على خشبة المسرح ممثّلون مختلفون؟!

- لا يكون لها طعم.
- هذه بالضبط هي حفلات الأفراح التي تحرص على تقديمها قاعات الأفراح.

حضر "إسلام" –خال "ياسين"– الجزء الأخير من الحِوار، عقّب في هدوء:

- اعتاد الناس أن يبدءوا كل مرحلة جديدة من حياتهم بتسمية الله والدخول بالقدم اليمنى طلبًا للعون والبركة، فباركوا حياة "ياسين" الجديدة، ودعوه يبدأ بذكر الله ويتقدّم بقدمه اليمنى.
- على بركة الله، فليكن ما أَحب.

****

أخيرًا بعد "زفّة" سيارات ماراثونية شاركت فيها ست سيارات حديثة، تقطع شارع كورنيش الإبراهيمية، وكورنيش النيل، وتعبر قناطر أسيوط فوق نهر النيل، وتطوف بمدينة أسيوط كلها، توقّفت سيارة العروسين أمام المدخل الخارجي لقاعة الأفراح الأنيقة، وخلفها توقّفت السيارات التي تُقل بعض أفراد العائلتين، وفي الاستقبال اصطف المدعوون يتقدّمهم عم "مصطفى" والد "ياسين" ووالدته، والأعمام والأخوال والجدة، والعمات والخالات وأزواجهن. ترجل ياسين من السيارة ودار حولها يفتح الباب الآخر لعروسه، هبطت روان لتساعد العروس وترفع لها الذيل الطويل للثوب عن الأرض. وبدأت زفّة صعيدي بالمزمار البلدي، كفقرة جميلة من فقرات أهل الصعيد في الأفراح، انطلقت الزغاريد والتهبت الأيدي بالتصفيق، وأخذ العم "مصطفى" يدبك (يرقص الدبكة) على أنغام المزمار الصعيدي، انضمت إليه ابنته

"شيماء" تشاركه دبكته وفرحته الكبرى. تناثرت الضحكات، ودمعت عيون من الرقّة والفرح، رفرفت القلوب حول القلوب وحلّقت الأرواح، وهامت.

استمرت الزفّة الصعيدي حتى دخل جميع المدعوين قاعة الفرح، وتسابقوا في حجز أماكنهم في أقرب موقع ممكن من منصة العروسين (الكوشة)، ومن لم يسعفه الزمن ولم تستجب له سرعة الحركة، اختار أن يجلس في مواجهة إحدى شاشات العرض العملاقة، فالرؤية عبر الصورة المباشرة التي تنقلها أوضح من أي محاولة للمشاهدة من موقع آخر للقاعة، ولو كان قريبًا من منصة العروسين. لكنّ العروسين وحدهما ظلا بالخارج لم يدخلا القاعة، مرّت لحظات وهدأت الأصوات المتداخلة، وجاء استدعاء هامس لشقيقي زيزي، "أحمد"، و"ماجد"، هما فقط من سُمح لهما بمغادرة القاعة، حتى "هدى" والدة العروس، وشقيقتها "روان"، و"شيماء" شقيقة "ياسين"، ووالديه، لم يتم استثنائهم من هذه الضوابط الصارمة فظلّوا في أماكنهم مترقّبين.

أُطفئت أنوار القاعة الفسيحة، فلفّها ظلام لحظي، واشتعلت المشاعل على جانبي الممر، الذي تم إخلاؤه تمامًا إلا من حملة المشاعل، ووقف "ياسين" بمفرده في نهايته منتظرًا، عزفت موسيقى صادحة لمقدّمة مسلسل "كفر دلهاب" ودقّت طبول عالية الصوت في قوة تبعث على الرهبة والتوجّس، دقائق ترقّب، مع انعكاسات خيالات لهب المشاعل على جدران القاعة وعبر شاشات العرض العملاقة، فُتحت البوابة، خطت "زيزي" متعثّرة في ثوبها الطويل يجرجر ذيله الطويل غير المرفوع على أرضية مدخل القاعة، على جانبيها "أحمد" و"ماجد"، يحمل كل واحد منهما ذراعها المجاور له، توقّفت الموسيقى الصاخبة ووقع الطبول المهيبة، تسلّل صوت عذب رقيق من السماعات المنتشرة في أركان القاعة يشدو:

كِبرت البنوت.. كبرت ست الكل

صار بدها تتجوز تتركني وتفل

ربيت بدموع العينين.. ربيت بالنقد وبالدين

يجي واحد ما أدري منين.. ياخدها وبيفل

شو غنيتلها لتنام في الليالي الشتوية

وعديتهم عد الأيام حتى صارت صبية

اتقهرت اتعذبت سنين كيرما لعيونها الحلوين

لما صارت في العشرين عريس الغفلة طل

لياخدها ويفل

معه الليلة عم بتروح وآدي كل القصة

باهنيك بصوتي المبحوح مبروك مع غصة

مع عرسك قلبي باهديك وأطلب من الله يخليك

لو فيّ عيوني أهديك تظل عليك تطل

وجهك في قلبي ظل

وانتقلت ذراع "زيزي" المعلّقة على ذراع شقيقها "أحمد" إلى ذراع "ياسين".

تمت بدمنهور ٢٦-٩-٢٠٢٣

٢ – رحلة الشتاء والصيف

أبتاه إن طلع الصباح على الدُنا وعم نور الشمس كل مكانِ

واستقبل العصفورُ بين غصونه يومًا جديدًا مشرقَ الألوانِ

وسمعت أنغام التفاؤل ثرةً تجري على فم بائع الألبانِ

وأتى يدق كما تعوَّدَ بابنا سيدق باب السجن جلادانِ

وأكون بعد هنيهةٍ متأرجحًا في الحبل مشدودا إلى العيدانِ[٢]

متكورٌ وحده في جانب الزنزانة، كأنَّه لمْ يستيقظْ بعد، ينبعث منه هذا الشجن بصوته العذب الذي يلامس قلوب مَن حوله في مناجاةٍ رقيقة.. الزنزانة ممتلئة بشباب غيره، لكنهم لا يتكورون على أنفسهم، ولا يكفُّون عن النشاط والحركة، تعلو وجوههم لمحة أمل، وشفاههم بسمة تشي بمرارة أو لهفة تنير هذه الوجوه الشابة.

إلا هو مبعث الأحزان والأشجان معًا.. نشاطه كله في صوته الندي وذاكرته الواعية، يعيش داخل نفسه كالمذياع الذي يصل صوته للجميع دون أن يتحرك من مكانه!

أطلب إليها الصفح عني فإنني لا أرتجى منها سوى الغفرانِ

ما زال في أذني رنينُ حديثها ومقالها في رقة وحنانِ

[٢] - الشاعر هاشم الرفاعي من قصيدة رسالة في ليلة التنفيذ https://www.youtube.com/watch?v=Ufen1zRX8PM

أبُنيَّ إني قد غدوت عليلةً لم يبق لي جلدٌ على الأحزانِ

فأذق فؤاديَ فرحةً بالبحث عن بنت الحلال ودعك من عصياني

كانت لها أمنية ريانـة يا عذبَ أمـال لها وأمـاني

ينظر إليه عادل مبتسمًا وفي عينيه مزيج من الحب والإشفاق يدعوه إلى طعام الفطور.. لم يخرج من داخل نفسه بعد، يغيّر صوته ولحنه كما لو أن عادل غيَّر محطة المذياع!

دعوني من أمانٍ كاذبات فلم أجد المُنى إلا ظنونا

وهاتوا لي من الإيمانِ نورًا يقوي بين جنبي اليقينَ

أمد يدي فأقتلع الرواسي وأبني المجد مكتملا متينا[٣]

يطوف بهم في شتى أنواع الحماسة والشجن، يشفع له نداوة صوته وعذوبة ألحانه، فيعفونه من كثير من الأعمال التي يفرضونها على أنفسهم داخل الزنزانة من إعداد أطعمة مهربة، وعمليات نظافة، وإبداعات متنوعة، الجميع يتهامسون عن رقته ورهافة مشاعره وشدة حساسيته، في جوف الليل وعلى ضوء المصباح المهرَّب إلى الزنزانة يضيئونه بعدما يسدون ثغرات الباب حتى لا يتسرب من ضوئه شعاعًا إلى حارس الدور المتجول ينطلق صوته العذب ينبض بالألم:

[٣] - هاشم الرفاعي ملكنا هه الدنيا قرونا https://www.youtube.com/watch?v=QtKDCJKmzFI

غدُك الذي كنا نؤمل أن يصاغ من الورود

نسجوه من نارٍ ومن ظلم تدجج بالحديد

ولكل مولودٍ مكان بين أسراب العبيد

والمسلمون ظهورهم للسوط في أيدي الجنود

والزاكمون أنوفهم في الترب من طول السجود

فلقد ولدت لكي ترى إذلال أمة

غفلت فعاشت في دياجير الملمة

مات الأبي بها ولم نسمع بصوت قد بكاه

وسعوا إلى الشاكي الحزين فألجموا بالرعب فاه[٤]

هي قصة عجيبة بيد أنها متكررة، فالفتى ابن رجل طيب من رجال البلدة الصغيرة يعمل بالتجارة ويحرص على تربية أبنائه بالأمانة والشرف، ويتمنى كما يتمنى الآباء الطيبون أن يحفظ ابنه الأكبر شطرا من القرآن الكريم يربطه بالله، ويعوده طريق المسجد، وخالد ذو صوت شجي مبدع، يؤثر في سامعيه، تطور اللقاء بالأصدقاء من حلقة المسجد إلى حلقات خارج المسجد، وذاع صيت الفتى خالد حمدي في البلدة والبلدان المجاورة باعتباره المنشد الإسلامي صاحب الصوت الرقيق

[٤] - هاشم الرفاعي أرملة الشهيد تهدهد طفلها الرضيع https://www.youtube.com/watch?v=w5JA2FBspeU

العذب. استعان به السياسيون في مؤتمراتهم الانتخابية المعارضة للحزب الحاكم، فشدا خالد بأناشيد الحماسة التي تلهب حماس الجماهير!

واستعان به زملاء الدراسة في الجامعة في حفلاتهم الفنية، وأثناء مظاهراتهم الاحتجاجية داخل أسوار الجامعة!

الفتى خالد لم يكن ضليعا في شؤون الفكر والسياسة، فهو في هذه المسائل أقرب إلى السذاجة والسطحية منه إلى المثقف المتعمق!

ومع ذلك أصبح اسمه يتردد في جنبات محافظته الإقليمية مع زعماء المعارضة وخطبائهم المرموقين.

وإذا عنّ له أن يسأل عن شؤون الفكر والثقافة والسياسة، قالوا له:

- حسبك أن تظل المنشد الإسلامي تخدم الدعوة بصوتك المدهش!

وقال له صديقه الذي يسبقه في الجامعة.

- لقد كان سيدنا حسان بن ثابت شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي نافح عنه المشركين بشعره حتى لكأنه يرميهم بالنبال، حتى خصص له سيدنا النبي مكانا في المسجد يلقي منه الشعر، كان أبعد الناس عن شؤون الحرب والقتال حتى نجحت امرأة هي السيدة صفية بنت عبد المطلب عمة النبي فيما فشل حسان فيه وأحجم عنه، من قتل جاسوس جاء يتحسس عورة حصن النساء أثناء أحداث غزوة الأحزاب، إذ كان حسان حارسا للحصن!

- تريد أن تقول أن لكل شخص وظيفته، وأنا وظيفتي الغناء؟

- هو ذلك يا فنان.

وذكر له ذات مرة حديثا عن سيدنا رسول الله يقول "...... طُوبَى لعبدٍ أخذ بعنانِ فرسِه في سبيلِ اللهِ أشعثَ رأسُه مُغبَّرةٍ قدماه إن كان في الحراسةِ كان في الحراسةِ وإن كان في السَّاقةِ كان في السَّاقةِ إن شفَع لم يُشفَّعْ وإن استأذَن لم يُؤْذَنْ له"

يطمئن فيمضي مع الركب مطمئنا مع المطمئنين، يُظلم فيحتسب معهم، ينتظر فرجا قريبا تأخر مجيئه! التذمر يأس، والضيق تعجّل ثمرة قبل أن تطيب، والتوقف لمراجعة الخطو ومعالم الطريق، قعود وتقاعس وتحلل من العهد!

ليسلك إذن مع السالكين، وينتظر ما انتظروا، وليثبت معهم أو يجمد، كما يثبتون أو يجمدون، إنما النصر صبر ساعة، والساعة في عمر الأمم أعمار وآجال!

تمضي الليالي وتمر الأيام، حاله لم يتغير كثيرًا.. من أعماق القلب تنبعث الألحان تنزف مع جراحه وتعبّر عن آهات النفس المكلومة في حبس الظُلمة والظلم.. ويأتي الباش شاويش كما يطلقون عليه تملقًا لتفويت بعض الممنوعات، وتأدبًا مع رجل في سن أبائهم، ليعلن في الصباح عن زيارة أو زيارات تتكدَّس معها أنواع الأطعمة الشهية متعددة الأصناف بتعدد بلدان المحبوسين، واختلاف مستوياتهم الاقتصادية، فيفطر من نوى الصيام بأمر أمير الزنزانة حتى لا يفسد الطعام، ويتوقف فريق الطهي عن العمل فلقد جاء الفرج..

وإذا عاد الباش شاويش ينادي مرة أخرى بعد العصر فمعناه أنه يعلن عن إفراج أو محاكمة..

ينتظر الجميع صوته بعد العصر على أحر من الجمر، فينادي على واحد أو اثنين أو ثلاثة، ليتجهزوا للخروج في صباح اليوم التالي، يكتم الباقون الحسرات يخفونها

تحت ابتسامات الإيثار ويسرِّبونها تحت حنايا النفوس الملهوفة على الحرية، وتذرف عيون المعلن أسمائهم دموعًا يختلط فيها الفرح بلوعة الفراق..

– استعد يا خالد سنقيم حفلة إفراج الليلة.. وغدا زفة للمفرج عنهم..

النشاط الوحيد الذي يشاركهم فيه خالد..

يتذكر وهو ما زال متكوما بجوار الجدار الرطب عشرات الوجوه التي جاء بهم العسكر وعشرات الوجوه التي خرجت، وعشرات الليالي التي شدا فيها بصوته الشجي ابتهاجًا ووداعا.. تبدلت كل الوجوه تقريبًا لم يبقَ سواه.. لعلهم نسوه..

أشد ما آلم خالد عندما وقف الباش شاويش بالباب يعلن اسمه في قائمة الإفراج، أنه كان وحيدًا، بعدما نسوه إلى منتصف الإجازة الصيفية، لم يفرح فلن يزفه أحد، ولن يشدو له أحد هو الذي شدا للعشرات.. آلمه أيضا أنه لا يستطيع أن يصلب طوله بسبب تعوده التكور بجوار الجدار!

خرج خالد حمدي لكن المرارة لم تفارق روحه، ضاع العام الدراسي وضاعت أشياء كثيرة، ما فائدة الأسى؟ لم يعد يتكور بجوار جدار الزنزانة لكنه أصبح يتكور داخل نفسه، تلك الزنزانة الضيقة المظلمة..

في الأعوام التالية تكرّر الحادث، أو ربما تكرر عام بعد عام، لم يعد يشعر بالفرق، بالداخل أو بالخارج سجينًا رغم أنفه، أنهى دراسته أم لم ينهها، لن يختلف الوضع

كثيرًا، زملاؤه الذين سبقوه دراسيًا بخمسة أعوام لم يعمل منهم أحد في وظيفة ثابتة، كلها (تخاطيف) كما يطلقون عليها، هو أيضًا يأخذ نصيبه من هذه التخاطيف، وعندما تضيق الحياة به ينتظر الليالي التي يقرعون عليهم الباب فيها قبيل الفجر بأحذيتهم الثقيلة وظهور بنادقهم ليصحبوه إلى حيث لا يصبح عالة على أسرته، ولا يحتاج إلى مصروف خاص، ولا إلى كتب ولا إلى تكاليف مواصلات، ولا حتى إلى ملابس!

يعتبر هذه الفترة هي فترة البيات الشتوي بالنسبة له، وعندما يطول انتظارهم يتأزم نفسيا، ويدعو الله أن يعجِّل بمقدمهم، أو يذهب إلى بعض أرباب السياسة من بلدته يطالبهم بفعل شيء كبير (مظاهرة – مؤتمر – ثورة) أي شيء يستحث به قدوم من ينتظرهم بفارغ الصبر!

أسى يومًا على زواج ابنة عمه، لكن هل هناك فرق بين أسى وأسى؟ حياته كلها أسى دائم.. شعر بابتسامة نصف ميتة تقف على زاوية شفتيه، وسمع صوت همساته تردد:

أبني إني قد غدوت عليلة لم يبق لي جلد على الأحزان

فأذق فؤادي فرحة بالبحث عن بنت الحلال ودعك من عصياني

كانت لها أمنية ريانة يا عذب آمال لها وأماني

ثم ماتت بقايا البسمة على زاوية شفتيه..

في ذات مساء من ليالي رحلة الصيف، حيث كانت له رحلتان، رحلة الشتاء في ليمان طرة وأبي زعبل، ورحلة الصيف في بلدته وما حولها، قال قريب له وهو يجلس على مصطبة الدار حيث سمعه يدندن:

وقبل أن أجيب

تحركت مدامعي سخية لمن مضى في الطريق

وأرهفت مسامعي لأستعيد من مواطن الغروب

وصية سمعتها لمن مضى في الطريق

عرفت كيف يقهر الرجال بالضنى

رأيت دمعة الرجال مضنية

عرفت كبوة الجواد مبكية[٥]

- لماذا يا خالد لا تحترف الغناء؟

نظر إليه نظرة من فقد شهيته للحياة، ولم يعقِّب، أضاف القريب:

[٥] - الشاعر الشذيخ إبراهيم عزت قصيدة ملحمة الدعوة https://www.youtube.com/watch?v=BXxjGzZiTOI

- سمعت عن مسابقة في الغناء، وبصراحة لي وسيط في اللجنة – قريب أصهاري – ولولا أن صوتي قريب الشبه بصوت الضفادع لتقدمت ونجحت، أنت أصلح شخص للنجاح في هذه المسابقة..

ظلت نظرات خالد تقول لقريبه: دعني وشأني.. أنا لا أشدو إلا بألحان الدماء النازفة، والناس في حاجة إلى فرفشة..

ألح القريب، واعتبر خالد التجربة مجرد قطع لرتابة رحلة الصيف..

وسيط قريب خالد (سره باتع) نجح خالد حمدي في المسابقة وعُرضت عليه مجموعة من الأعمال مقدّمات (تترات) بعض المسلسلات التلفزيونية، تلك التي تعبّر عن أحوال اجتماعية وتثير الشجون..

في غضون عام واحد تغير حال خالد حمدي، لم تعد له في العام رحلتين في الشتاء والصيف، اختفت رحلة الشتاء تماما وحلت مكانها رحلة واحدة صيفا وشتاء إلى القاهرة.. أخذه الجو الجديد..

بين يديه مال لا بأس به، مظهره جيد ولا شك، حوله كثير من المعجبين والمعجبات – وآه من المعجبات – في كل وجه جميل يوشك أن يغريه تطفو في صفحته صورة (هالة) ابنة عمه، يرى وجهها بدرا يبدّد ظلمات حياته، دائرة في بياض الثلج تتألق في طرحتها السوداء..

فارقت مظاهر الألم وجهه، ولم تفارق المرارة نفسه.. روحه تتكره، بين روحه وجسده تائه، بين خالد حمدي وخالد حمدي لا يعرف من يكون!

أحيانا ينفرد بنفسه ويحن إلى رحلة الشتاء، حلم يكبر داخله كل ليلة أن يصنع شيئا مختلفًا ومذهلا يعيده إلى خالد الذي كان يعرفه.

تعذّب بالضنى وتعذَّب أكثر بالنعيم!

أدمن عادات لا يقبلها عقله ولم يهفُ إليها قلبه، بعضها تمليه طبيعة المهنة والوسط، والبعض الأخر ليكمل رحلة هروبه من ذاته، وكلما أفاق عاد إلى التيه من جديد..

ذات مساء اختلى بنفسه وبكاها بحرقة، بكى ليالي السهاد والبكاء قد كان في السابق يستطيع أن يبكي كلما شعر بحاجته إلى البكاء، أن ينوح بآهاته طليقًا كما شاء ولو داخل سبعة جدران بعضها في جوف بعض.. الآن يشتهي الدمعة الصادقة، فهو مضطر للابتسامة وجوفه يحترق!

عينان لا يمكن أن ينساهما، وعينان لا يفارقان وجدانه.. الأولى قاطعته منذ زمن، ولم تعد راضية عنه.. في الماضي كانت ترثي لحاله، كانت صابرة، لم تطلب منه يوما أن يبيع ما يؤمن به، فقط يخبأه في حنايا الذات حتى يمر به إلى بر الأمان.. بالأمس القريب خيّرته بين حياته الجديدة وبين علاقته بها..

حيل بينه وبين الثانية بما ليس لهما ذنب فيه..

أفاق من أحزانه على صوت أذهله ومشهد أفاقه من ذهوله، تساءل في عجب، هل تشع كرة الثلج دفئا وحرارة و...؟!!

جاءت إليه تصحب طفلها ابن الخمس سنوات.. سألته عاتبة:

- هل مازلت تذكر؟

طأطأ رأسه.. أجابت عيناه

تعانقت دموعهما..

- بيننا عهد يا خالد، طريقنا واحد، ولو لم تضمنا غرفة واحدة.. أحببتك لكن حبي ووفائي للعهد أشد.. وفائي لزوجي وفائي لعهدي معك، تناسيتك لشدة وفائي لعهد الطهر الأبدي معك.. هل تنهض يا خالد لنكمل الطريق؟ نكمله معا، وإن بقى كل منا في قارب خاص؟.. أبو أيمن أوصلني حتى أسفل المنزل.. ينتظر دعوتك له للصعود أو أهبط إليه وأخبره أن صاحب العهد مات ولن يعود.

بكى كثيرا، عرف في بكائه اختلاط دموع الفرح بالندم باللهفة على العودة.. العودة من وإلى رحلتي الشتاء والصيف..

أول أغنية سجلها في ألبومه الجديد وأصر على إذاعتها في إحدى الفضائيات قبل أن يعود إلى بلدته مباشرة.. لم تكن أغنية جديدة ولكنه استأذن صاحبها أن يعيد غناءها بإحساسه:

إيه أمي لو أراكِ قبل أن يأتي الردَى

زوديني بدعاكِ وامنحي قلبي الرضا

كم أُناجيكِ بقلب أثقلته النائبـات

وأرى طيفك حولي ساطعًا كالنيرات

لست أخشى من مماتٍ فالفدا عهدٌ ثمين

غير أني لو أراكِ يبسم القلبُ الحزين[٦]

بعدما التم شمله بأمه وأسرته، خطى خالد حمدي خطوات جديدة في طريق الغناء، أصبح يغني للحياة لا للموت، للحرية لا للسجن!

وغلب على غنائه لون من المديح لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن لم يعتزل التغني بحب الوطن، ومناصرة قضايا الإنسان في كل مكان.

في لقائه المتلفز على الهواء وقد أذيع منذ فترة وجيزة، سأله المحاور أن بستفيض في شرح تحولاته الفنية، فأجاب:

- عرفني الناس في شبابي بالمنشد الإسلامي، والحقيقة التي أدركتها بعد النضج والتجربة والدراسة، أنني وقتها كنت منشدا حركيا أشدو لحركة سياسية وإن كانت الأناشيد نفسها حماسية أو شجية، لكنها كانت حركية وليست إسلامية بالمعنى الواسع، ثم أتت مرحلة تحولت فيها تحت ضغط الواقع المادي وشيء من الإحباط إلى الغناء التجاري بصرف النظر عن محتواه الرسالي، ثم جاء التحول الأخير ناضجا كما أرجو إلى الغناء الحلال بمفهومه القيمي والإنساني الواسع!

- بناء على رسائل المشاهدين نريد أن تختم البرنامج بإحدى الأغنيات القريبة من قلبك.

انطلق خالد حمدي يشدو:

---

[٦] - https://www.youtube.com/watch?v=rILFrE4V75I

الحلوه دى قامت تعجن في البدريه

والديك بيدن كوكو في الفجريه

يلا بينا على باب الله يا صنايعيه

يجعل صباحك صباح الخير يا أسطى عطيه

.....

طلع الصباح فتاح يا عليم

والجيب مافهشى ولا مليم

مين فى اليومين دول شاف تلطيم

زى الصنايعيه المظاليم

.....

الصبر أمره طال

من بعد وقف الحال

يا اللي معاك المال

برضه الفقير له رب كريم

.....

ما تشد حيلك يا أبو صلاح

اضربها صرمه تعيش مرتاح

خللى تكالك ع الفتاح

يللا بينا الوقت اهو راح

.....

الشمس طلعت والملك لله

اجرى لرزقك خليها على لله

ما تشيل أدومك والعده ويلا

.....

الحلوه دى قامت تعجن في البدريه

والديك بيدن كوكو في الفجريه

يلا بينا على باب الله يا صنايعيه

يجعل صباحك صباح الخير يا أسطى عطيه[٧]

---

٧ - كلمات بيرم التونسي ألحان سيد درويش.

٣ – في بيت أم جهاد

رحم الله تعالى أم جهاد..

كنا نؤم بيتها، وفيه نشعر بسكينة مسجد أو قريبة من المسجد..

فبيت أم جهاد كان على الدوام مسجدا مقدسا ثراه..

حينما تتخطين البوابة الخارجية تشعرين بالملائكة تصافحك في الطرقة المؤدية إليه..

وحينما تفتح لك الباب، توقنين أن أبواب رحمته تعالى قد فتحت لك..

وفي بيت أم جهاد رأيت الملائكة بعين اليقين، وشعرت بالسكينة تملأ وجداني، وتلمست الرحمة..

عشت حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم غضا طريا وواقعا ملموسا، ولم لا يحدث وبيت أم جهاد مسجد مقدس ثراه؟!

كان ذلك في بواكير الشباب وميعة الصبا، على أعتاب الثانوية العامة، حين عرفنا روضة من رياض الجنة في هجير حياتنا الملتهبة بفعل عوامل شتى، ليست أقصاها ولا أدناها فزاعة الثانوية العامة ومكتب التنسيق، التي قد تهون أمام إلتهاب المشاعر وضياع الهدف وتيه الغاية وفقدان النفس.

لا أعرف كيف ولا إلى أين أسير!

لا يمكنني تلمس الفواصل بين الخطأ والصواب أثناء رحلة الشك في الثوابت في مرحلة شديدة الحساسية، حيث كنت أحاول جاهدة التمييز بين تلك الثوابت المصنوعة بفعل العادات وهي ثوابت من صنع الإنسان ولذا فهي أغلال في أعناق

الإنسان، وبين تلك الثوابت المستمدة من السماء حيث نزلت إلى الأرض لتحررنا من القيد وتأخذ بأيدينا إلى الانعتاق..

في دوامة رحلة الشك والتمييز هذه كدت أهوى أكثر من مرة بين يأس وإحباط وبحور من قنوط ظلمات بعضها فوق بعض لا أمل فيها ولا بصيص من أمل..

حينما قادتني قدماي فجأة مجاملة لإحدى صديقاتي لبيت أم جهاد..

ومنذ تخطت قدماي عتبة هذا البيت أدركت أن رحلة الشك المضنية باتت على وشك النهاية وأنني وصلت أخيرا إلى شاطئ الأمان في حضن أم جهاد..

في بيت أم جهاد فتحت المصحف وقرأت وسمعت قرآنا يتلى بطريقة مختلفة وروح مختلفة، وشعرت أنني ما سمعت قرآنا يتلى من قبل، رغم كثرة ما سمعت وأنا أمر على صوانات العزاء المتكررة كل يوم..

وعرفت أنه يمكنني أن أقرأ القرآن فأرتله ترتيلا..

وأفهم أن الله تعالى يخاطبني وأنه سبحانه يدعوني.

من دون البشر جميعا أنا مدعوة من قبل المولى عز وجل لتنفيذ أمر..

وتحرك قلبي لأول مرة وأنا أسمع نداءً علوي الصدى هز الوجود فزلزل النفس **(قل للمؤمنات..)**..

تعلمت من أم جهاد أنني واحدة من هاتيك المؤمنات ،وأنني مقصودة بخطاب الله تعالى من فوق سبع سماوات..

وأدركت ربما لأول مرة في حياتي أن طبقة المؤمنات ليست طبقة تاريخية مندثرة أو أنها انقرضت مع (الديناصورات) و(الزرافات ذوات الرقاب القصيرة) و(الفيلة عديمة الخراطيم) التي كنت أدرسها في مقرر الأحياء..

رأيت طبقة المؤمنات أخيرا..

رأيتهن عينا بعد أثر، وواقعا بعد تاريخ، وعلما بعد حلم، حقيقة بعد خيال، وحاضرا بعد ماض..

رأيتهن في بيت أم جهاد..

في بيت أم جهاد ودعت حياتي الماضية، وفاصلتها نفسيا ومعنويا واستقبلت حياة جديدة ورتعت من الجنة وروضاتها..

وحييت.. حييت حقيقة، عرفت الحب بعدما أجدبت نفسي دهرا..

عشت أول مرة في حياتي معنى الأخوة..

مصطلحات كثيرة غريبة لم أسمع عنها من قبل ولا كانت بين مفردات معجمي ولا معاجم من حولي..

عرفت الإيثار والبذل والعزة والإيمان والمناجاة واليقين..

أعظم ما أدركت في بيت أم جهاد: أن الالتزام واحة.. روح وريحان.. جنة في النفس وسعادة في القلب وسكينة في الضمير والشعور..

وكنت أظن الالتزام قيد، فإذا به يحطم كل قيد، وكنت أظن الالتزام كبت فإذا به انطلاق في فضاءات لم ترتدها مخيلتي من قبل..

أجمل ما في بيت أم جهاد أن رضوانه، أو فلتقولي حارسة الروضة وحمامة المسجد المقدس ثراه، لم تغادره في حياتها إلا لماما..

كنا نعرف قدرها فكنا نزورها وكنا نتحلق حولها.. وأحيانا يشاكس بعضنا بعضا من أجل الفوز بموعد أكثر اتساعا معها.. لم تكن في حاجة ونحن روادها الدائمات من أن تنتقل إلى هنا وهناك لتلقي درسا أو تسمع محاضرة.. ومنها فهمت المعنى العملي لقوله تعالى: **(وقرن في بيوتكن)**..

لقد صنعت أم جهاد جيلا ربته على عينها وتعهدته بالرعاية.. ولم تكن في حاجة أن تعلن عن نفسها بكثرة الانتقال والحركة وشغل المجالس والتطفل على كافة الأعمال والتجمعات.

وفي بيت أم جهاد فهمت تطبيق قوله تعالى: **(وأنذر عشيرتك الأقربين)**، وقوله صلى الله عليه وسلم: خيركم خيركم لأهله..

كان البيت واحة من أمان للزائرات، ومحضن من حب ودفء لأهله..

كم مرة جلست إلينا تحدثنا أو تسمع لنا وصغيرتها جهاد فوق ذراعيها أو بين أحضانها تناغيها بين الفينة والفينة، وفي لحظات صمت التقاط الأنفاس..

حدثت ذات يوم لي مشكلة ظننت أنها معقدة لا حل لها، وبعد طول عناء أدركت أن الحل في بيت أم جهاد، فذهبت إليها على غير موعد وفي ساعة لم تكن تزورها فيها زائرة..

وتأخر الرد قليلا حتى ظننت أنه لا أحد في البيت ثم أدركتني مسرعة وأدخلتني للصالون على عجل كانت منتقبة على غير عادتها معنا، وكنت غِرة لم أفهم شيئا،

غير أن رائحة عطر فواح كانت تنتشر في الأرجاء.. وهرعت أعرض مشكلتي، وهي تنصت..

حتى أتاني صوت ملاطفة أبو جهاد لطفلته.. وشعرت فجأة أنني أخطأت فارتبكت ثم استأذنت على عجل وهي تمهلني لتفهم مشكلتي وأنا أسرع الخطى نحو الباب.. وكان هذا واحدا من أعظم دروسها لي وإن لم تتفوه فيه بحرف..

ترحمت على أم جهاد التي سكنتني فلم أنسها قط، وأنا أراهُنّ من موعد لموعد منطلقات، ودموع تترقرق في عيني طفلة بريئة كقطرات ندى على خدود وردة حمراء، وابن فقد حنان الأم بين يدي مدرس يعلمه رسم (حرف الألف) على دفتر من ورق التسعة أسطر

ربما دخلت بيوتا كثيرة أفخم وأوسع ثراء من بيت أم جهاد، فما صافحتني ملائكة، ولا غشيتني رحمة، ولا شممت عبق عطر عرفته يوم ارتبكت في صالون أم جهاد وصوت مناغاة الوالد لطفلته يأتيني همسا..

لقد كان بيتها مسجدا مقدسا ثراه!

٤ – حدود الخطأ

حنون كشلال ليس له نهاية.

قلب كبير على هيئة جسد.

حبه لا حدود له.

غضوب كفيضان جارف لا يوقفه سد.

رقيق كالنسمة.

هادر كالعاصفة.

ليس متقلب المشاعر كما يبدو.

أصدق وصف يمكن أن أصفه به بعد طول عشرة: أنه متطرف العاطفة.

متطرف في حبه حتى تشعرين أنه لا يمكن أن يعرف الكراهية.

متطرف في حنانه حتى لا تصدقين أنه يغضب أو يثور.

متطرف الغضب حتى لا تفهمين كيف يمكن أن يهدأ.

متطرف في خطئه ومتطرف في اعتذاره

أحبني فاحتواني.

لا يريد أبدا أن يعترف أننا رغم كل امتزاج كيانين لا يمكن أن يتوحدا تماما.

مؤمن هو أننا كيان واحد ذائب.

يحبني كقطعة ثمينة من جسده، ولتكن عينيه.

بالأمس وأنا أقرأ له كما تعود دائما أن أفعل مع كل ما ينتج، ومع كل ما يقتني من كتب أو قصص أو روايات.

اعترف لي باسما، وهو يربت خصري:

- عندما تقرئين لي أتقمص شخصية طه حسين، ليس في مكانته الأدبية والفكرية، ولكن لأنك تذكرينني بسوزان التي كانت تقرأ وتكتب له كل شيء، فكانت عينيه اللتين يبصر بهما.
وأنا أبصر بك..

تخللت أصابعي رأسه وطبعت قبلة حانية فوق جبينه.. ثم عاودت القراءة..

إذا ثار فإنما يثور على نفسه التي بين جنبيه مبررا شدة حنقه وانفعاله، بأنها ثورة عارمة على النفس، ومن الطبيعي أن يثور الإنسان على ذاته وأن يغضب من نفسه حتى لا يكاد يطيقها.. من الطبيعي عنده أن يعنف نفسه حتى تكاد تفر من بين جنبيه، ثم يعود فيغدق عليها من حنانه يدللها كقطة أليفة تتمسح بأقدامه.

بعد طول امتزاج، لم اعد أدرك حدود الخطأ.

في البداية كنت أخجل من تيار حبه الجارف ونسمات رقته الحانية وندى حنانه الرقراق، وأخشى براكين غضبه القاذفة بكرات الحمم.

بين الخجل والخوف أتبين وقع خطواتي وأزن أفعالي وردود أفعالي.

لم يعد يطيق تلك الحسابات يدفعني دفعا لأن أكون معه بلا حسابات ولا قيود، حتى إذا انجرفت إلى حد الزلل أو الخطأ.. ثارت براكينه.

مشكلتي أنني فعلا لم أعد أعرف حدود الخطأ.

لم يعد يمكني التنبؤ بثورة البركان القادمة.

أخطئ أو أظن نفسي أخطأت فأتوخى الحذر من لهب سيصيبني لا محالة.

فإذا به يمد لي حبال حب متينة، يقلني من عثرتي، يحنو علي، يبتسم في وجهي وفي عينيه الدافئتين تترقرق دمعتان عذبتان كجدول رقراق.

ينتشلني وهو يتمتم:

- لا عليك.

تتوقف ذاكرتي لحظتها عند موقف واحد لا يمكن أن تتقدم عنه أو تتأخر.. أخال أنني أرى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول لأصحابه: غارت أمكم.. غارت أمكم.

وأظنني لم أخطئ حين تهب عواصفه ريحا صرصرا تدمر كل حلم حلو بنيته في أعماق قلبي.

حائرة أنا حد التيه.

خائفة أنا حتى الرعب.. وجسور الأمان تمتد على بعد خطوة واحدة مني.

أشعر أنني بنيت بيتي الذي صنعته من خلايا جسدي وقطرات دمي وشرايين قلبي فوق جرف هار أتوقع أن ينهار بي في كل لحظة.

وفي حيرتي الأبدية منذ عرفته لم أجرؤ على البوح.. على الشكوى.. على طلب الحل أو المساعدة..

لا يمنعني إلا نسمات حبه حين تخمد عواصفه الهوجاء..

ورغم تقوقعي على روعتي ورعبي وأماني، أشعر أن حياتنا كتاب مفتوح يقرأه كل الناس، وإن كنا قد اخترنا أن نعتزلهم جميعا في جزيرة نائية بعيدة كل البعد، نرى الناس ويروننا – على البعد – فعزلتنا تقاوم التأقلم أو التواصل أو الذوبان.. ورغم عزلتنا الاختيارية في جزيرتنا النائية أشعر أن لمعان عيوننا بالحب يلمحه كل من يمر بالجزيرة ولو من على بعد عشرات الأميال.. ويؤلمني أن ثارات براكينه يلمحها كل من في كوكبنا الكروي..

أخيرا قررت أن أخرج من عزلتي الشعورية ولو للحظات أعرض مأساتي.. سائلة بنات حواء وعيناي متعلقتان بالجواب كقشة يمكن أن تقسم ظهري أو أن تحملني معها إلى شاطئ واضحة فيه حدود الخطأ:

- ماذا تفعلن لو كنتن مكاني؟

٥ - لحظات من عمر الزمن!

ليس من السهل أن يغمركما شعور بالألفة بين بضع مئات من البشر يجمعكم مكان واحد!

أن تجمعك صالة مطار دولي تضم آلاف البشر من جنسيات عدة بها وجهًا لوجه، فتجد نفسك كرجلٍ أربعيني رزين منجذبًا ومفتونًا ومشدودًا إليها إلى الدرجة التي تجعلك تقلب كل خططك رأسا على عقب، وتغيّر حتى وجهة سفرك الدولية تلك!!

وتجد نفسها كامرأة وقورة يصفونها في محيط عملها بالمرأة الحديدية تشعر بكل هذه الألفة تجاهك!!

ثم يحدث كل شيء بعد ذلك بسرعة مذهلة مجنونة!! عالمهما ليس فيه مجال للنزوات النزِقة، أسباب الانضباط في حياتهما مختلفة باختلاف الظروف والدوافع، لكنهما منضبطيْن إلى حد من مثالية وتقشف على كل حال..

وجد نفسه يلغي رحلة سفره ويبادر بطلب تأشيرة دخول دولتها، ليجدها في استقباله المترع بالسعادة بعد عدة أيام!!

الجميع تهامس بجنونهما معًا، إلا صديقة سبرت أغوارها من قبل قالت:

- لا مبرر لكل هذا سوى أنه سحركِ سحرًا حقيقيًا لا مجاز فيه..

ضحكت بعذوبة وهمست:

- هو أيضًا يلقبني بالساحرة!

لم يكن فيما حدث شيئ خاطئ، لكنه ظل خارجًا عن المألوف والمنطق، وربما العقل!

همست وهي تدفن رأسها في صدره تحتمي به من نفسها:

- حلمت كثيرًا بهذا الكم المجنون من السعادة.. رغبْته.. اشتقت إليه.. دائمًا آمنت باستحالة تحقيقه.. أنت حققته لي.. أخذتني إلى روضة من رياض الجنة، رغم بقائنا على الأرض التي عليها نحيا..

احتواها برقة وبرجفة أخافتها من تشبثه بها.. طبع قبلة حانية بين عينيها.. أضافت بصوت متكسّر بعدما ارتجف جسدها من فزع مفاجئ:

- أعرف أنني سأفقدك.. سأفقد نفسي التي لم أعرف حقيقتها إلا معك.. ما باليد حيلة، رغم كل شيء نحن نعيش في مجتمع لا مكان فيه لجَنّة على الأرض.. لا بقاء فيه لحبٍ مجنونٍ خارقٍ للعادة..

ظل يعبث في شعرها كمن يداعب طفلته في المهد، بللت دموعه وجنتيه في صمت.. استمر رنين هاتفهما المحمول دون انقطاع معلنًا رفض العالم لاستمرارهما معًا..

جمع أشياءه القليلة وانصرف، فقط أبقى لديها قلبه وبقايا روح..

في انتظار طائرة العودة، كتب لها عبر هاتفه رسالة: "كنت أدرك كل هذا، رضيت بأن أختطف لحظات من عمر الزمن، أحيا فيها إنسانًا بقلبٍ ينبض وروحٍ تحس.. لم أطمعْ في أكثر منها، فتلك اللحظات كانت المستحيل ذاته.. ومع ذلك أحترم قراركِ بأن الزمن ليس ملكًا لنا ولا يحق لنا سرقة بعض لحظاتِه.. دمتِ بخيرٍ وعذوبة."

٦ – المحاولة الأخيرة

هبّت البرودة القاسية على حياتهما فجأة دون مقدّمات، كعاصفة خماسينية مباغتة في أعقاب يوم ربيعي مشرق تُلوّن وجه الكون بلون أصفر باهت، وتشبّع الجو المعفّر بالأتربة والرمال، فتكاد تختنق الأنفاس في الصدور!

مضت حياتهما معا قصة حب رائعة يضرب بها العُشّاق المثل لكل ما هو جميل في الحب، يعيش في أعماقها، وتعيش في وجدانه..

لم تؤثر في قصتهما لطمات الحياة القاسية أحيانًا، ولا فتنتها الطاغية أحيانًا أُخرى..

امتزج الحب الصادق بالتفاهم الفكري المتبادل..

بالإيثار والتضحية، بالمودة والرحمة، بالمسؤولية المشتركة، بالأمل الواحد الطموح، بالرغبة الملحّة في تهيئة حياة مثالية للأبناء..

امتزجت كل القيم الإنسانية النبيلة في علاقتهما فصنعت نفسًا واحدة بجسدين ينفصلان أحيانًا لأداء وظيفتين تصبّان في الهدف الواحد، ويتصلان أحيانًا لأداء الرسالة نفسها!

سنوات عشر مرّت على هذه العلاقة الفريدة المتميّزة حتى أصبحا قادريْن على إعطاء الأزواج دروسًا في الحُب.. لجأت إليهما الكثير من الأُسر التي تعاني المشكلات تستمد منهما النصيحة.

الحياة تمضي بينهما في رغد، رغم كل الصعاب الخارجية..

سعادتهما نابعة من إيمانهما الثابت بقدرتهما على الاستمرار ككيان واحد..

لم يأبه في أول الأمر لهاتين العينين اللتين ترمقانه بوله حيي..

أين المفر وساعات العمل تجمعهما معًا ربما أكثر من الساعات التي يقضيها في بيته؟

صحيح أنه يترك قلبه وراءه في البيت حينما يودّع زوجته بقبلة حانية ويستودعها الله فتدعو له..

غير أنه في النهاية بشر، والتي تُلح عليه في ريعان الشباب، تتفتّح عاطفتها كما تتفتّح الزهرة مع نسائم الربيع..

لم يكن من النوع الذي يخطف بصره الجمال الباهر، فقد ألزم عينيه غض البصر منذ كان غضًا، لكنها تخاطب وجدانه أكثر مما تخاطب عينيه..

لعل إيمانها هي الأخرى يزداد بقدرته على التوحَّد معها.. لعلها سمعت عن السعادة في كنفه وحلمت بها رغما عنها.. لعلها الأُلفة والتعوُّد وطول المخالطة.. لكنه في النهاية الحُب..

يَرثي لها أكثر مما ينجذب إليها، فعلاقته بزوجته ثابتة، غير أن المشاعر الشابة فيه تزحف رويدًا، رويدًا على مواطن الشيب!

يرجع إلى بيته، يحاول أن يُعيد الشباب مع رفيقةِ عُمره.. مسؤولياتها بين الأولاد والمنزل، وخدمته كسكرتيرة تدير شؤونه أعباء تلتهم وقتها كله.. هيهات أن تجد وقتًا لدور المحبة المليئة بطاقات الرغبة والشوق.. تشعر بحاجته إلى الدفء.. تحاول أن تقتطع من وقت الأسرة لتعطيه الشباب، ولكن إن وجدت الوقت فأين النفْس المشتّتة بين الأعباء.. المنسحقة تحت طلبات الحياة وضروراتها؟!

يهرب إلى الإنترنت.. إلى الأدب.. كاد يؤمن أن الحب العاشق لا يوجد إلا في قلوب الخُلاة والمترفين، أو في الروايات والأفلام، أمّا الذين يصارعون صعوبات الحياة فيكفيهم التفاهم والانسجام..

العقل يحسم الموقف لصالح الكيان الواحد المشترك، ولكن هيهات في مثل هذه القضايا المصيرية الشائكة أن يحسمها العقل وحده..

العاطفة والغريزة يصارعان من أجل البقاء.. الذكريات الحلوة تتتابع على ذهنه، كانت له أيضًا قصة حب صاخبة استمرت سنوات.. هل يريد أن يعيش الشباب مرتين؟!

هو لا يزال شابًا لكنها أفنت حياتها لتأمين حياتهما المشتركة وحياة الأسرة..

هل جزاء الشمعة التي احترقت لتضيء له ظلمات الطريق أن يستبدل بها شمعة أخرى؟

يوقن أنه يستطيع تشكيل الشمعة الذائبة من جديد.. يغير فتيلها المحترق، ويعيد تشكيلها فتضيء له عالمه حتى النهاية.. العقبة الوحيدة أنها لا تساعده على استبدال الفتيل المحترق كأنها أدمنت الاحتراق كما وهبت نفسها للتضحية..

الفتنة تكاد تطوّقه بذراعيها البضتين، كأنها تلمح الصراع في أعماقه فتشدّد عليه الحصار بعنف ليعلن الاستسلام.. ينبوع حياة يتدفّق أمام عينيه..

لا بد من المواجهة الحاسمة.. أخيرًا قرر الأجازة من العمل ومحاولة مستميتة لإعادة تشكيل الشمعة المحترقة..

٧ - خطـأ في شهـادة وفــاة!

لم يكن أصعب عليّ كطبيبة منذ عُيّنت بوزارة الصحة من الانتقال إلى البيوت للكشف عن جثث الموتى لإصدار شهادات الوفاة، كنت أشعر أنني عُينت بمكتب (حانوتي)

إن دخول بيوت الأُسر التي أُصيبت بحالة الوفاة يكون دائمًا محفوفًا بالمخاطر، منطويًا على الكآبة، متفجّرًا بالحزن، مُترعًا بالأسى!

هذا هو السبب الوحيد الذي يؤرّقني، ويدعوني للبحث عن وظيفة طبيّة في مكان آخر، رغم أنه أصبح عملا روتينيًا يجب أن أعتاد عليه. لكنّني حتى لحظتي هذه لم أُصبح قادرة على التعايش معه!

إن قيامي بفتح (خُرّاج) وتنظيفه، أو خياطة جرح نازف، رغم ما في ذلك من معاناة للمريض المتألّم، والمستسلم رغما عن إرادته لمشرطي وأدواتي، وما يثيره من تعاطف إنساني مع الألم، أهون عندي من مطالعة صورة الموت، وتشمّم رائحته!

عم إبراهيم عامل الصحة، يرمقني بنظرة مشفقة كلما تقدّم إلينا أحدُهم يطلب استصدار شهادة وفاة! الرجل الذي قضى أكثر من ثلاثين سنة من عمره في هذا العمل، وفي هذا الموقع بالتحديد، تآلف مع ما يقوم به من وظيفة تمامًا.. يعاملني كابنته، وإن لم يصرح لي بذلك أبدًا.. ربما خجلا من نفسه أن يعتبر الطبيبة مثل ابنته!

لكني أشعر بأُبوته وحنانه، خاصة حين تدهمني مصيبة القيام بتدوين شهادة وفاة!

في سيارة الصحة رافقنا الشاب الذي جاء مبلّغًا عن حالة وفاة، عرفت منه أن المتوفاة شقيقته، امرأة شابة في مقتبل العمر، تركت خلفها زوجًا وأربعة زهور بريئة.

أشفقت على نفسي أكثر من ذي قبل، وأنا مقدمة على معاينة جثة لامرأة مثلي لا تكبرني سنًا سوى بأعوام قليلة، تخيّلت هدير الحزن الذي سيصطدم بوجهي لحظة الوصول إلى البيت!

أمام البيت كان المنظر المعتاد في مثل هذه المناسبات، عشرات المقاعد أُعدّت أمام المدخل، يجلس عليها الرجال، وحركة عاجلة في مدخل البيت، أمّا النساء فكنّ في الطابق الأعلى، لم أسمع لهنّ صوتًا كما توجّست من قبل، وإنما أحسست بحرارة شديدة رغم كوننا في فصل الشتاء! كُنّا في شهر ديسمبر حيث البرد قارص.. لقد كانت حرارة الحزن الصامت تكوي أفئدة أهل الميتة وجيرانها.

دخلتُ إلى الغرفة المغلقة على النهاية الوحيدة الأكيدة في هذه الدنيا، يرافقني عم إبراهيم، وشقيق المرأة، على الفراش طالعني الوجه المكدود من أثر معركة طويلة، أو قصيرة، ضارية وغير متكافئة مع المرض الخبيث.. رغم ذلك شعرت بطمأنينة وسكينة تلف الوجه المودّع للحياة!

لم يكن في سبب الوفاة شك.. أثر(الكانيولات) في أماكن متفرقة من الذراعين، وعلى جانبي الرقبة، يؤكّد على مستوى الرعاية الطبية التي حظيت بها المريضة قبل وفاتها.

دوّنتُ البيانات المطلوبة في شهادة الوفاة، ثم خرجتُ من الغرفة.. طالعني وجه شاب أو كهل، لم أستطع التحقّق على وجه الدقّة.. يقف بالقرب من الباب متلهّفًا على الدخول!

كان وجه شاب، شابَ رأسه قبل الأوان.. عرفت من همهمات حولي أنه زوجها، تفحّصت وجهه من جديد.. لم أدرِ لمَ غلبني الفضول لتفحّصه بهذه الدقّة.. نظرتُ في عينيه.. لم يكن فيهما نظرة حزن أو جزع.. أو حتى إشارة إلى الثبات والصبر، كان فيهما فراغ.. ضياع!

كانت العين المطبقة للمرأة المتوفّاة بالداخل أكثر تعبيرًا من عينيه التي تتمّان عن اللا شيء!

إن أول شيء ينظر إليه الطبيب للتأكّد من حدوث الوفاة بعد قياس النبض عن طريق رسغ المتوفى، هما عينيه.. إن عيني الميت تفقدان بريقهما ولمعان الحياة خلال أقل من ثانية!

شاهدت تلك العينين التي حسبت أنني خلفتهما ورائي في الداخل، شاهدتهما أمامي من جديد!

عينان فقدا كل اتصال لهما بالحياة والأحياء.. لقد كان الرجل الواقف قبالتي، أيا كان عمره، صورة مجسدة للموت! نظرت في دفتر تصاريح الدفن، راجعت الاسم الذي دوّنته قبل دقائق بعناية شديدة.. وهممت أن أسأل أحد الموجودين حوله عن اسمه.. وأن أُصحح الاسم المدوّن بالدفاتر.. لقد أدركت أنني أخطأت في تحرير شهادة الوفاة!

فـهرس

مسلسل	القصة	رقم الصفحة
١	فرح زيزي	٢
٢	رحلة الشتاء والصيف	٧٣
٣	في بيت أم جهاد	٨٦
٤	حدود الخطأ	٩٢
٥	لحظات من عمر الزمن	٩٦
٦	المحاولة الأخيرة	٩٩
٧	خطأ في شهادة وفاة	١٠٢